دراسات في

التراث الجغرافي العربي الإسلامي

تأليف

الدكتور عبد علي الخفاف

رئيس قسم الجغرافيا - جامعة الكوفة

الدكتور محمد أحمد عقلة المومني

محاضر غير متفرغ - جامعة اليرموك

دار الكندي للنشر والتوزيع

1420هـ - 2000م

دار الكندي للنشر والتوزيع
شارع الحصن _ مقابل البنك الأهلي الأردني
تلفاكس 7244323 ص . ب 893
اربد_ المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية:9991/4/467

المؤلف أو من هو في حكمه: عبد علي الخفاف_ محمد أحمد عقلة المومني
دراسات في التراث الجغرافي العربي الاسلامي
الموضوع : جغرافيا
تراث _ جغرافيا
اربد _ دار الكندي للنشر والتوزيع
تم اعداد بيانات الفهرسة و التصنيف الأولية من قبل المكتبة الوطنية

المحتويات

الفصل الأول
قارة إفريقيا في التراث الجغرافي العربي الإسلامي

الفصل الثاني
ابن خلدون في التراث العلمي

الفصل الثالث
الخصائص الرئيسية لجغرافية الأرض عند أبي الفداء

الفصل الرابع
الفكر الجغرافي عند الرازي

الفصل الخامس
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر للدمشقي

الفصل السادس
النساء الراشدات في الوطن العربي
مؤشرات ديموغرافية

المقدمة

لم يكن العرب قبل الاسلام اناساً بلا حضارة، بل كانوا على اتصال مع جهات العالم المختلفة. ولقد هز الاسلام حضارات العالم واسقطها مثل حضارة الفرس وحضارة الروم، وانتشر خلال فترة قصيرة من المحيط الاطلسي غرباً إلى سواحل جنوب شرق اسيا شرقاً وإلى وسط اوراسيا شمالاً وإلى مجاهل افريقيا جنوباً . وشمل اليوم معظم انحاء كوكبنا بعالمه القديم والجديد.

فالبقاع التي امتد عليها الاسلام واسعة ذات شعوب مختلفة واقتصاديات وطرق حياة متباينة، لقد تأثر كل ذلك بالاسلام، فقد أثر بصورة خاصة في افكار الناس الذين اعتنقوه.

لقد امر الاسلام اتباعه بطلب العلم، وحين توسع المسلمون بفتوحاتهم تعرفوا على مدن وانهار واراضي وشعوب جديدة. وقد احتاج انتشار الاسلام إلى معرفة اراضي وشعوب العالم، وبدأ العلماء والرحالة يكتبون عن المسالك وطبوغرافيتها ومسافاتها، لأن اي حاكم يجب أن يعرف كل ما يدور في رقعته.

يتضمن الكتاب مجموعة من الدراسات التي بحثت في التراث العلمي العربي الاسلامي، وهي دراسات شاهدة على عظمة الاسلام، فلم يقتصر العلماء المسلمين في كتاباتهم عن البلاد العربية وحدها، بل شمل الاراضي التي وصلها الاسلام وهي معظم اراضي العالم القديم (قارات اسيا وافريقيا) واوروبا.

والعالم اليوم على ابواب القرن الحادي والعشرين، فمن اليوم ١ تموز ١٩٩٥ وحتى نصل إلى ١ كانون الثاني ٢٠٠١ بقي خمس سنوات وستة شهور ليدخل

العالم القرن الحادي والعشرين... العالم ما زال يكتب ويحلل افكار العلما المسلمين. فالدراسات التي تضمنها الكتاب تبرز عبقرية العلماء المسلمين العلمي في الوصف الشامل لكل الوحدات الجغرافية التي وصلها الاسلام، وقدموا للعال انذاك كتابات عن افريقيا واسيا وابدعوا في مجال رسم الخرائط، واوضحوا للعال أسس الدول القوية.

وقد تضمن الكتاب ستة فصول: تناول الأول

قارة افريقيا في التراث العربي الاسلامي

أما الفصل الثاني فقد تناول بالدراسة ابن خلدون في التراث العلمي

ثم تناول الفصل الثالث الخصائص الرئيسة لجغرافية الأرض عند أبي الفداء.

ثم تناول الفصل الرابع الفكر الجغرافي عند الرازي

أما الفصل الخامس فقد تناول نخبة الدهر في عجائب البر والبحر للدمشقي .

وأخيراً تناول الفصل السادس النساء الراشدات في الوطن العربي.

المؤلفان

اربد ٢٦ حزيران ١٩٩٥

الفصل الأول

قارة افريقيا في التراث الجغرافي العربي الاسلامي

مقدمة

تمثل الحضارة العربية الأسلامية السلاسل الزمنية لتاريخ الحضارة البشرية حيث ساهم العرب المسلمون في بناء العالم الحضاري بعد أن تعرفوا على جهود الأمم السابقة بالترجمة والنقل، فاضافوا اليها واكتشفوا نواقص الفكر فيها وابدعوا وابتكروا واكتشفوا الكثير.

والتراث العلمي في هذه الحضارة يمثل جانباً من التراث العلمي البشري تقترن أهميته بأهمية الحضارة ذاتها، لقد خلف لنا العرب المسلمون، من العلماء والباحثين جهوداً علمية واسعة في مختلفة نواح المعرفة، لا زال المهتمون بدراسة تاريخ العلم والتراث يبذلون الجهود الكبيرة في سبيل التعرف عليها.

لقد شمل هذا التراث الاهتمام بعلوم الرياضيات والطبيعة والطب والصيدلة والكيمياء والأحجار والمعادن وتصنيفات النبات والحيوان والهندسة والعمارة إلى جانب الدراسات الأنسانية في مجال اللغة والأدب والتشريع وعلوم القرآن والسيرة والتاريخ والفلسفة والمنطق والاجتماع والجغرافية.

وبديهي أن يحتفل العالم الاسلامي بمطلع كل عام جديد، تذكيراً لعهد المساهمة الفاعلة في بناء كيان العالم الحضاري، وتاكيداً بأن خواص هذه

الحضارة لا زالت موطن اعتزاز كافة مفكري العالم ومنظريه، حيث أنها من أساسيات حضارة عصرنا.

وإذ يحتفل العالم الاسلام بمطلع العام الهجري الجديد فهو على أبواب مرحلة تاريخية جديدة. فخصائص العالم المعاصر اختلفت عما كانت عليه مطلع القرن الماضي، مما يشجعنا على استلهام هذا التراث في تكوين عصري يتجاوب مع حاجات الزمن، وليعود العالم العربي والعالم الاسلامي ثانية في التأثير الأيجابي لحركة التاريخ، والتراث العلمي الجغرافي يشكل جزء هام من نشاط العلماء أبان نهوض الحضارة الأسلامية وازدهارها، وكان له دور كبير في تطور الفكر الجغرافي العالمي، في حفظ مخلفات الحضارات القديمة، واليونان والرومان، وما قدمه من معلومات عن مساحات جديدة من العالم ومن نظريات في تفسير الظاهرات الطبيعية والبشرية على سطح الأرض.

وقد أشار عدد كبير من مستشرقي العالم، الذين امتازت مواقفهم بالموضوعية والدقة العلمية، ونذكر على سبيل المثال، المستشرق الألماني (شبرنكر- Scprenger) الذي تحدث كثيراً عن القيمة العلمية لكتابي (المقدسي) الموسوم (احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) والذي يدل اسمه على منهجيته الأقليمية، وكتاب (الهمداني) "صفة جزيرة العرب" كأهم كتاب في الوصف الجغرافي الخاص. والمستشرق الروسي "كراتشكوفسكي" وقد قدم دراسة علمية مستفيضة عن الأدب الجغرافي العربي ودوره في تطور التراث الجغرافي الأنساني.

وبهذا الكتاب الموجز حاولنا التعرف على جهود الجغرافيين العرب المسلمين في دراسة "التراث العلمي الجغرافي" مساهمة في بعث التراث للأستفادة من معطياته في توجهنا الحضاري، كما أننا استهدفنا معرفة الكيفية التي تتطور بها المعرفة البشرية، وأخيراً دحض الآراء المتحيزة التي تحاول أن تقلل من شأن المساهمة العربية والاسلامية في ميدان المعرفة والتراث العلمي.

قارة افريقية في التراث الجغرافي العربي الاسلامي

(١) النشاط الجغرافي العربي

(٢) المصادر اللغوية

نحاول أن نتعرف على ملامح الاهتمام بالجغرافية عند العرب قبل الاسلام وبعده وما هو دور الدين الاسلامي بزيادة هذا الاهتمام واتساعه.

لقد كتب عددمن الباحثين عن الجغرافية عند العرب قبل الاسلام ولخص هذه الكتابات عدد آخر منهم، على سبيل المثال فقد قدم: الدكتور "ابراهيم السامرائي" استاذ اللغة العربية بجامعة بغداد والدكتور "محسن جمال الدين" استاذ اللغة العربية بجامعة بغداد والأستاذ "حبيب الراوي" أستاذ اللغة العربية بجامعة بغداد وغيرهم دراسات عن المصادر اللغوية للجغرافية عند العرب. ومن هذه الدراسات يتضح أن المستشرقين نبهوا وأشاروا إلى الدور الهام للجغرافية العربية الأسلامية، وهم بذلك عنوا المختصين بكتابة الجغرافية، أن صح هذا التعبير "في القرون الوسطى" إلا أنهم اغفلوا أن مادة الجغرافية الأولى أو نشأة الفكر الجغرافي العربي الأولى كانت على يد نخبة من علماء اللغة ودارسيها والباحثين فيها.. فقد عنى اللغويون الأقدمون بتحديد البقاع والمنازل الكثيرة التي وردت في الشعر الجاهلي والأسلامي وأحاديث الرسول الكريم (ص). والبعض يؤكد أن الجغرافية دخل في اصله عند العرب من باب الشعر والأدب فقالت الشعراء ما شائت ثم حمل اللغويون والرواة وزر تعريفها وتحديدها.

وسار على آثار أولئك نفر من هم أقرب للاختصاص هم أهل البلدان والذين تأثروا بترجمات الحضارات. وأشار إلى هذين الأتجاهين في الكتابة الجغرافية "ياقوت الحموي" في مقدمة كتابه "معجم البلدان" ويذكر من بين هؤلاء اللغويين:

- "الكلبي" المتوفي عام (٢٠٤ هـ) ومن مؤلفاته:

الانهار، الأقاليم، البلدان الكبير، البلدان الصغير، اشتقاق البلدان، انساب البلدان.

- "ابن حموية" وله كتاب الجبال والأودية.
- "البكري" وله كتاب معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع.
- "الزمخشري" وله كتاب الجبال والأمكنة والمياه.

أن هؤلاء اللغويين والمتأدبين وغيرهم حرروا المادة اللغوية الأدبية وهي مادة جغرافية.

ويعتبر "المخصص" لابن سيد" أهم ما كتب اللغويون، وهو من علماء القرن الخامس الهجري. وقد تطرق فيه الباحث إلى ظواهر سطح الأرض الطبيعية والبشرية وحاول أن يقدم التفسيرات لتاثيرات الطبيعة على نشاط الانسان وفعالياته، وتاثيرات البيئة الطبيعية في نمو النبات وتوزيع الحيوان [1].

ولأجل الأجابة على الأسباب التي دفعت العرب للاهتمام بالجغرافية والظاهرات الجغرافية فأننا نعود إلى طبيعة البيئة التي عاش بها العرب في بادية ارتبطت حياتهم بظاهرات السطح فيها وظاهرة صفحة السماء عليها، فقدروا قيمة المطر وحاولوا التعرف على مواسمه. ولذلك فاستدلوا على حركات الكواكب في السماء فظهر عندهم "علم الأنواء" وكانوا يستعينون بالنجوم في تجوالهم وترحالهم وفي حساب التقويم الزمني بمعرفة شهور العام وفصوله ومعرفة ساعات الليل والنهار فجعلوا لكل ساعة منها اسما، ولاهتمام عرب البادية بالنجوم يذكر "الجاحظ في كتابه "الحيوان" ٩/ ٣١. سئلت اعرابية فقيل لها (تعرفين النجوم؟)

قالت: سبحان الله، أما أعرف اشباحاً وقوفاً على كل ليلة.

وسئل أعرابي عن ذلك فقال: ويل أمك من لا يعرف اجذاع بيته:[2]

ولهذا الاهتمام الواسع ظهر بينهم علم (الهيئة) أو (علم النجوم) أو (علم الفلك) حيث نشطت أفكار التنجيم والربط بين حوادث الأرض وحركات النجوم.

ب: المصادر الجغرافية:

وكانت الخطوة الثانية بعد المصادر اللغوية حيث أفرد الباحثون لكل موضوع كتاباً كالخيل والأبل والمطر والنجوم ونحوها، وبعدها تناولوا الموضوعات الجغرافية بكتب مستقلة يتعلق بعضها بالأنواء والبعض الآخر بالمسالك والممالك.

والحقيقة أن استعمال كلمة (جغرافية) كان نادراً عند العرب لدرجة أنهم استعملوها لتدل على المفاهيم الجغرافية الافريقية سيما فيما يخص "بطليموس" الجغرافي الاغريقي القديم، وظلت كلمة (جغرافية) عندهم مصطلحاً علمياً لم يحاولوا أن يجدوا له مقابل في العربية كما أشار "حاجي خليفة" في "كشف الظنون"[٣].

وبقيت كتب الجغرافية تحمل اسماء "البلدان" أو "معجم البلدان" أو "تقويم البلدان" أو "عجائب البلدان" أو "المسالك والممالك".

وتحدث عدد كبير من مستشرقي العالم عن اصالة الفكر الجغرافي لدى العرب وعن اعتمادهم على ما ورثوه من اليونان والرومان. وقد جمع الدكتور ابراهيم شوكت أدلة علمية قاطعة عن عدد من المستشرقين الذين يؤكدون أصالة الفكر الجغرافي العربي[٤] والدي مر بمرحلتين هما: مرحلة (المدرسة اللغوية) من القرن الثاني للهجرة حتى أواسط القرن الثالث، ثم مرحلة "المدرسة الجغرافية"، وقد ابتدأت "بالمسالك والممالك" وعاشت مع المدرسة اللغوية في أواسط القرن الثالث الهجري وامتدت إلى مطلع القرن الرابع، ثم "أخبار البلدان" وتبحث عن شؤون اقاليم العالم والعالم الاسلامي على وجه الخصوص. ولا نغفل أن الطبيعة التي عاشها العربي الجاهلي حتمت عليه التعرف وملاحظة بعض الظاهرات الجغرافية "الاسلام والنشاط الجغرافي".

للأسلام دور بارز في تقدم المعرفة الجغرافية يتلخص هذا الدور بالجانب الديني وتأدية الفرائض الدينية والجانب السياسي حيث اتسعت دولة الخلافة الاسلامية، أن أداء الفرائض الدينية تستوجب من المسلمين التعرف على بعض

الظاهرات الجغرافية والفلكية فلا بد للمسلمين من معرفة الجهات الأربعة لكا مكان يصلون اليه لكنت يحددوا "القبلة" ومواعيد الصلاة والصوم ولرحلة "الحج من مشرق العالم الاسلامي ومغربه دور فعّال في التعرف على ممالك ومسالك هذ العالم وأهم خواصه الطبيعية والبشرية والاقتصادية، كما أن اجتماع المسلمين م هذه الأقاصي في البيت الحرام يساعد على ذلك التعرف ايضاً.

ويضاف إلى ذلك الرحلات لطلب العلم ولأغراض التجارة سيما أن التجار في ابان النهضة الاسلامية استخدمت الطرق البرية والبحرية وتجاوزت حدو العالم الاسلامي إلى أواسط "افريقيا" وشمال شرق أوروبا وجنوب شرق "آسيا ولكثرة ما حصلت من رحلات وسفرات بعرض البحار وعلى طول البراري ابتدعن شخصية "السندباد البحري" الخالدة التي ارتبطت اسفاره بالأدب الجغرافي.

ومن أسباب ذلك النمو في المعرفة الجغرافية كان اتساع رقعة الدول الاسلامية(٥) فأن هذا الاتساع وتدعيم سلطانها في القرنين الثامن والتاسع للميلاد أدى إلى ظهور مهام إدارية خاصة في مجال الشؤون المالية والخراج، فلأجل الحصول على الخراج كان لا بد من الاستفادة ممن لهم علاقة في مسح الأراضي، كما أن ظروف الأحوال الجديدة استلزمت جمع المعلومات الدقيقة عن الولايات وتقسيماتها وعدد الأماكن المأهولة والمحاصيل الزراعية والصناعية لغرض تقدير الخراج والضرائب العينية والنقدية. وأدى تنفيذ هذه المهمة إلى ظهور كتب الخراج التي قصد بها أول الأمر ارشاد عمال الخراج ولكنها لم تلبث أن أصبحت في متناول أيدي الجميع.

ومن جانب آخر تطلبت المركزية في النظام الاداري الذي تجمعت خيوطه في بغداد ودمشق الكشف عن طرق جديدة للمواصلات واستقصاء معلومات دقيقة عن تلك الطرق مع تعداد المراحل ومناز البريد وتحديد المسافات ومعرفة ظروف السفر.

ويضاف إلى ذلك أن مصالح الدولة اقتضت عدم الاكتفاء بمعرفة أراضيها وحدها، بصفتها أكبر قوة عالمية، فكان من الضروري أن تحصل على معلومات دقيقة عن الأمصار الأخرى سيما تلك المتاخمة لحدودها، وقد ساعد على ذلك ظروف السلم والحرب، على حد سواء، حيث أمكن الحصول على المعلومات من سفارات الدولة وأسرى الحرب.

نستخلص مما تقدم أن الحضارة الاسلامية، بشرائع الدين وفروضه وتشجيعه لطلب العلم ولاتساع رقعة الخلافة، ونشاط المسلمين السياسي والاقتصادي، أثر واضح في زيادة النشاط الجغرافي، على صعيد جمع المعلومات الجغرافية الوصفية واستكشاف جهات غير معروفة لمن قبلهم، وعلى صعيد تفسير الظاهرات وربط علاقاتها المكانية ووضع النظريات لذلك، وشمل هذا الاهتمام جوانب الطبيعة الطبيعية والبشرية والاقتصادية.

ولأجل مقارنة ما عرفه الجغرافيون العرب والمسلمون بما عرفه من قبلهم نذكر أنهم عرفوا "اوروبا" بأجمعها بأستثناء أقصى شمالها وعرفوا النصف الجنوبي من "آسيا" كما عرفوا "افريقيا" جتى خط عرض (١٠) درجات شمال خط الاستواء وساحلها الشرقي إلى رأس كرينتس "قرب مدار الجدي"[٦].

لقد ترك الجغرافيون العرب المسلمون وصفاً لجميع البلدان من اسبانيا غرباً إلى تركستان ومصب السند شرقاً، لكافة المناطق المأهولة والمزروعة والصحاري. وبينوا مدى انتشار النباتات المزروعة والطبيعية وتوزيع الحيوانات البحرية والنهرية والبرية والطيور وأماكن وجود المعادن، سيما المعادن الثمينة والأحجار الكريمة، وتناولوا السكان بالوصف، من حيث الشكل والهيئة واللغة والدين والعادات الاجتماعية والفعاليات الاقتصادية، ولم يقتصر ذلك على حدود العالم الاسلامي بل تجاوزتها إلى حدود العالم المعروف يومذاك.

وفيما يتعلق بأفريقيا فلأول مرة تظهر في المؤلفات الجغرافية العربية دراسات لوصف جهات القارة وصفا مفصلا وقد استمرت معلوماتهم تمثل القول الفصل في هذا المجال لحين ظهور المستكشفين الأوروبيين في القرن التاسع عشر[٧].

معرفة اليونان والرومان بافريقيا

قبل التعرف على جهود الجغرافيين العرب والمسلمين لدراسة هذه القارة والكتابة عنها لا بد من الأشارة السريعة إلى ما وصل اليه قبلهم. فقد نشطت الجغرافية اليونانية والرومانية في دراسة العالم حينذاك.

وبالنسبة لقارة افريقيا فالمعروف أن الرومان هم أول من أطلق هذا الأسم على القارة(٨) وكانت معرفتهم بهاومعرفة اليونانيين من قبلهم تعود إلى ما قبل الميلاد بقرون عديدة. ويمكن أن نلخص المعرفة اليونانية والرومانية بالقارة بالنقاط التالية:

١- وصفوا الساحل الشمالي للقارة وصفا جغرافياً مفصلا سيما مصر والساحل الليبي، فدراسات (هيرودوتس ادوارد هيكانوس) عن الليبيين وعاداتهم ذات قيمة جغرافية وتاريخية. وربما جاءت دراساتهم عن هذه الجهات بشكل مكثف بسبب أنها وقعت تحت نفوذهم السياسي لفترة طويلة. وكانوا يطلقون على الساحل الليبي اسم (سيرين– Cyren).

٢- درسوا مصر من شمالها إلى جنوبها للسبب المذكور آنفا، وحاولوا تقديم التفسيرات لجريان النيل من الجنوب إلى الشمال وفيضانه في موسم الصيف، وهو الفصل المعروف بالجفاف لجميع أنهار العالم تقريباً، وذهبوا لذلك إلى شتي الاعتقادات حتى توصل البعض منهم أن سبب فيضان النيل صيفاً يعود إلى سقوط الأمطار وسط القارة خلال هذا الفصل(٩) ولم يستطيعوا تحديد منابع النيل عدا (بطليموس) الذي أوضح أنها من بحيرة جنوب خط الأستواء ومن جبال أطلق عليها اسم جبال القمر.

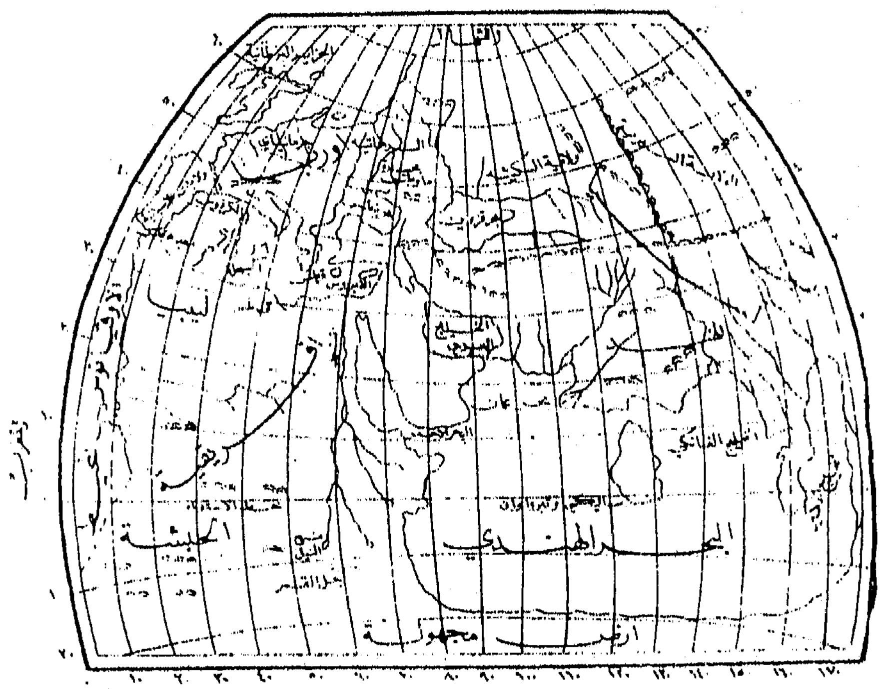
٣- وبصورة عامة كانت معلوماتهم عن جنوب مصر قليلة وغامضة وكانوا يطلقون على تلك الجهات (اثيوبيا) واعتبروها بلاد السود الحقيقيين، وذكر (بطليموس) الجغرافي الشهير الذي عاش منتصف القرن الثاني للميلاد، أن الجهات المعمورة في افريقيا تنتهي بالقرب من خط الاستواء، فما وراءه بلاد غير مسكونة بسبب شدة الحر.

٤- وكانت معرفتهم بالساحل الشرقي تنتهي عند الحدود الجنوبية للصومال والتي أطلق على رأسها اسم (براميوم) وبالساحل الغربي كانت تشوب معلوماتهم الخرافة. فقد ساد الاعتقاد بأن من غير الممكن التطواف حوله لاندفاع المحيط الاطلسي في تلك الجهات وكثرة الطين والحشائش فضلاً عن ارتفاع درجة الحرارة، وكان يروج مثل هذه الأفكار جغرافيون كبار امثال (بطليموس وهيرودوتس).

٥- وساد الاعتقاد لديهم أن جنوب القارة يمتد في ارض يابسة، وأن البحر الأحمر يتصل بالمحيط الهندي مكوناً بحيرة مغلقة، وكان من أشد المتحمسين لهذا الرأي (بطليموس) كما يتضح ذلك من خارطته التي رسمها للعالم شكل (١). وكان من نتيجة هذا الاعتقاد لم يفكر أي مكتشف حتى نهاية القرون الوسطى في الطواف حول القارة أو الوصول إلى الهند عن طريق المحيط الأطلسي حتى نجح (بارثمليوديار- Diaz) ومن بعده (فاسكودي كاما Gama) عام (١٤٩٨) في تنفيد الاعتقاد[١٠].

٦- رسموا القارة في خوارطهم التي رسموها للعالم. وتعتبر خارطة بطليموس من أدق الخوارط التي يمكن الركون اليها لتخليص معرفتهم بالقارة. ومن هذه الخارطة نلاحظ افريقيا كتلة واسعة من اليابس متصلة بيابس العالم القديم (اوروبا وآسيا) عن طريق شبه جزيرة سيناء وقد أطلق على البحر الذي يفصلها عن آسيا اسم (الخليج العربي) بدلاً عن البحر الأحمر. وفيها يبدو النيل يمتد من منابعه في جبال القمر حتى مصبه في البحر المتوسط. ويحد القارة من الجنوب ارض مجهولة ومن الغرب الأوقيانوس، وعرفها بأوسع جهاتها شمالاً باسم (ليبيا) وبأوسع جهاتها جنوباً باسم (اثيوبيا).[١١]

هذه هي أهم خصائص المعرفة الجغرافية لليونان والرومان بهذه القارة وسنحاول خلال الصفحات القادمة أن نتعرف على جهود العرب والمسلمين للتعرف عليها.


البحر الهندي
أرض مجهولة

(٣) افريقيا والجغرافيون العرب المسلمون:

المعروف من الدراسات التاريخية أن رقعة الأرض التي حكمها العرب المسلمون في العالم القديم سيما في آسيا وافريقيا، قد تجاوزت كثيراً المساحات التي كانت تحت النفوذ اليوناني والروماني حتى خلال أعظم عهود الامبراطورية الرومانية، وقد اقترن اتساع رقعة الأرض مع تعاظم النشاط التجاري واتساع رقعته إلى مستوى لم تشهده امبراطورية الاسكندر ولا الأمبراطورية الرومانية أيضاً. لقد امتد النشاط التجاري للمسلمين إلى ما وراء حدود العالم الاسلامي، فتوغل التجار داخل الصحراء الكبرى وعبدوها وأقاموا صلات مع جهات افريقيا الغربية في غانة والنيجر والسنغال. ووصلوا إلى خط عرض (١٠) شمالاً. وتجولت سفنهم على امتداد السواحل الشرقية حتى (مدغشقر- جزيرة القمر).

من ذلك، تجمعت لديهم معلومات جغرافية عن العالم المعروف يومذاك فعرفوا الكثير عن افريقيا مما لا يعرفه اليونان والرومان وتوغلوا في جهاتها الداخلية فاستكشفوها وكتبوا عنها.

(٤) الكيان الطبيعي للقارة:

الموقع والحدود والمسالك:

تشير الآثار الجغرافية والكارتوكرافية التي خلفها الجغرافيون العرب المسلمون في الفترة المبكرة لنشاطهم، أنهم حددوا مواقع الممالك للعالم حسب مفهوم اقليمي، فوزعوا تلك الممالك على سبع اقاليم، وكانت الأقاليم على شكل دوائر متلاصقة، فالحبشة تقع ضمن الأقليم الثاني المعروف بأقليم "الحجاز" وهو إلى الجنوب من الأقليم الرابع. ويشمل بالأضافة إلى الحبشة كل من الحجاز وعدن واليمن وبادية العرب والجزيرة. ومصر والساحل الشمالي للقارة حتى المحيط الأطلسي، وبلاد السودان فتقع ضمن الأقليم الثالث المسمى اقليم (مصر) وهو إلى الغرب الشمالي من الاقليم الرابع ويشمل اضافة إلى مصر والشام وما بعدها مصر حتى أقصى المغرب والسودان والبربر.

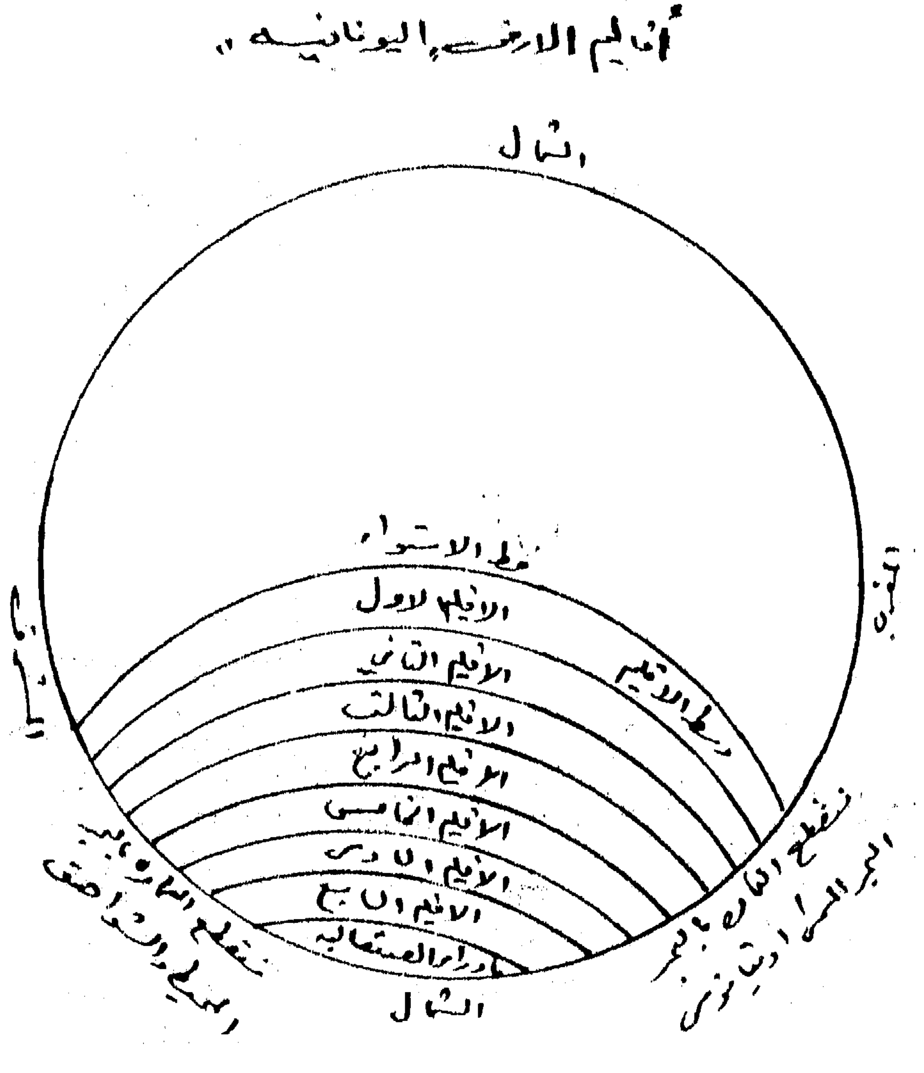
ومن ذلك يتضح أن معظم أراضي القارة تقع ضمن "اقليم مصر" أي ضمن الأقليم الثالث. وعلى سبيل ذكر الاختلافات في تحديد بعض مواقع جهات القارة من هذه الاقاليم يذكر "المسعودي" أن مصر وافريقيا ويقصد بها تونس والبربر ويقصد بها بلاد المغرب تقع ضمن الأقليم الرابع[١٢] بينما ورد عند "المقدسي" أن (... أدنى أرض السودان إلى المغرب...) من الاقليم الأول ومن (... اسوان مصر إلى حد النوبة...) ضمن الأقليم الثاني... وتقع من افريقيا ضمن الاقليم الثالث "... وفيه الاسكندرية والقيروان..."[١٣].

وعند ملاحظة الشكل المذكور لتوزيع هذه الأقاليم، ووضع الجهات الأربعة في مواقعها الصحيحة يبدو أن موقع (اقليم مصر) وهو الاقليم الثالث يحتل الموقع الجغرافي الصحيح لكتلة القارة الافريقية فهو جنوب اقليم الروم الذي يشير إلى الشعوب الأوروبية وإلى غرب اقليم الحجاز وبابل اللذان يشيران إلى الشرق الأوسط من آسيا.

ومع مرحلة التعرف على الأفكار اليونانية في تقسيم المعمورة إلى اقاليم في أواخر القرن الثالث الهجري، حينما نشرت أكثر من ترجمة لكتابي "بطليموس" (جغرافيا والمجسطي) أهمل مفهوم توزيع الأقاليم بالطريقة الفارسية وحل محله مفهوم الاقاليم على شكل احزمة عريضة تمتد من اقصى الشرق إلى اقصى الغرب فوق خط الاستواء، ويختلف كل اقليم عن الآخر بعدد ساعات النهار والليل فيه. وأبان الحضارة العربية الاسلامية تزايد عدد الممالك في كل اقليم منها مع زيادة المعرفة والكشف الجغرافي للعالم حينذاك.

وعند مراجعة التوزيع الجغرافي لممالك العالم في هذه الأقاليم يتضح أن أراضي القارة تقع ضمن الأقاليم الأربعة الأولى بعد خط الاستواء، لاحظ الشكل (٢).

شكل (٢)


أقاليم الأرض اليونانية
الشمال
خط الاستواء
الإقليم الأول
الإقليم الثاني
الإقليم الثالث
الإقليم الرابع
الإقليم الخامس
الإقليم السادس
الإقليم السابع
الشمال
المغرب
وسط الأقاليم

وهذا يعني أن تصورهم الجغرافي حول امتداد أراضي القارة كان صحيحاً لدرجة كبيرة. فالمعروف أن معظم أراضي افريقيا شمال خط الاستواء هي امتداد بين المنطقة الحارة والدفيئة. أما عن افريقيا جنوب خط الاستواء فلم تكن معروفة ولم يرتادها مكتشف. ونورد هنا توزيع "ابن رسته" لمالك العالم ضمن هذه الاقاليم مؤكدين على ما يرد عن القارة "الاقليم الأول... ثم يقطع الاقليم بحر القلزم فيمر على بلاد الحبشة ويقطع نيل مصر وفيه هناك مدينة ملك الحبشة تسمى جرمي ودنقلة مدينة النوبة في بحر الاقليم في أرض المغرب على جنوب بلاد البربر إلى أن ينتهي إلى بحر المغرب، الاقليم الثاني... ثم يقطع بحر القلزم ويمر بصعيد مصر فيقطع النيل وفيه من المدن مدينة قوس واخيم واستاي واسوان، ثم يمر بأرض المغرب في وسط بلاد افريقية ثم يمر على بلاد البربر فينتهي إلى بحر المغرب. والأقليم الثالث: يقطع إلى اسفل أرض مصر وفيها القرما وثنيس ودمياط وفسطاط مصر والفيوم بالاسكندرية، ثم يمر على بلاد برقة ثم على بلاد افريقية وفيها مدينة القيروان وينتهي إلى بلاد المغرب. الاقليم الرابع: ثم يمر في بحر الشام على جزيرة قبرس وروِدس ثم يمر في أرض المغرب على بلاد طنجة وينتهي إلى بحر المغرب..."(١٤).

وتتحدد هيئة القارة وموقعها الجغرافي لديهم من خلال الأعمال الكارتوكرافية التي خلفوها، فعند ملاحظة هذه الأعمال نلاحظ أن القارة قد اتسمت في تصورهم بما يلي:

١- **خوارطها قبل خارطة الأدريسي:**

تظهرالقارة بخوارط (الاصطخري- نبع ٩٥١ م) (واين حوقل- ٩٧٧) (والجبهاني- في القرن العاشر ايضا) على صورة كتلة من اليابس تمتد جنوب الأرض لتحتل النصف الجنوبي بكامله، يفصل جهاتها المواجهة للصين والهند وايران بحر واسع كبير، ويفصلها عن جهاتها المواجهة لاوروبا بحر، على شكل بحيرة، يمثل البحر المتوسط، وترتبط بالبر الآسيوي عن طريق نتوء بري يمتد بين مصر وبلاد الشام، وهو شبه جزيرة سيناء.

وتتوزع الممالك في هذه القارة، فبلاد الزنج توضع عادة بجهات القارة الشرقية مقابلة للصين والهند وتمتد إلى الجنوب منها عادة براري مقفرة. أما على ساحل البحر المتوسط ويطلق عليه "بحر الشام" أو "بحر الروم" احياناً، فتمتد عليه مصر وبجنوبها ترسم "الصعيد" وقريباً من منبع نهر النيل حيث جبال القمر توضع بلاد "البجة"، ويجاور مصر المغرب، وإلى الجنوب منها توضع السوادن. وحتى نهاية القارة مع سواحل البحر المحيط توضع البراري الجنوبية وهي مقفرة ايضاً من العمران والحياة النباتية والحيوانية، بسبب شدة حرارتها صيفاً وبرودتها شتاء وندرة المياه فيها.

ويرسم نهر النيل كابرز ظاهرات سطح الأرض الطبيعية في القارة، ينبع من جبال القمر ولتحديد موضع هذه الجبال تظهر بعض الاختلافات فلبعض يضعها وسط القارة ومواجهة لساحل البحر الشامي حيث يصب النهر، والبعض الآخر يضعها شرقاً فيرسم النهر منحرفاً باتجاه الشرق والبعض الثالث يبالغ في تطرف الجبال فيضعها في الشرق، البعيد فينحرف النهر شرقاً لمسافة طويلة.

وبالإضافة إلى ذكر مصر والمغرب والسودان والبربر، ذكر «ابن حوقل» في خارطته «غانه وكوغه وسامه وغريو وكزم» وهي ممالك للكفار، لاحظ الشكل (٣).

٢- خارطة الشريف الادريسي:

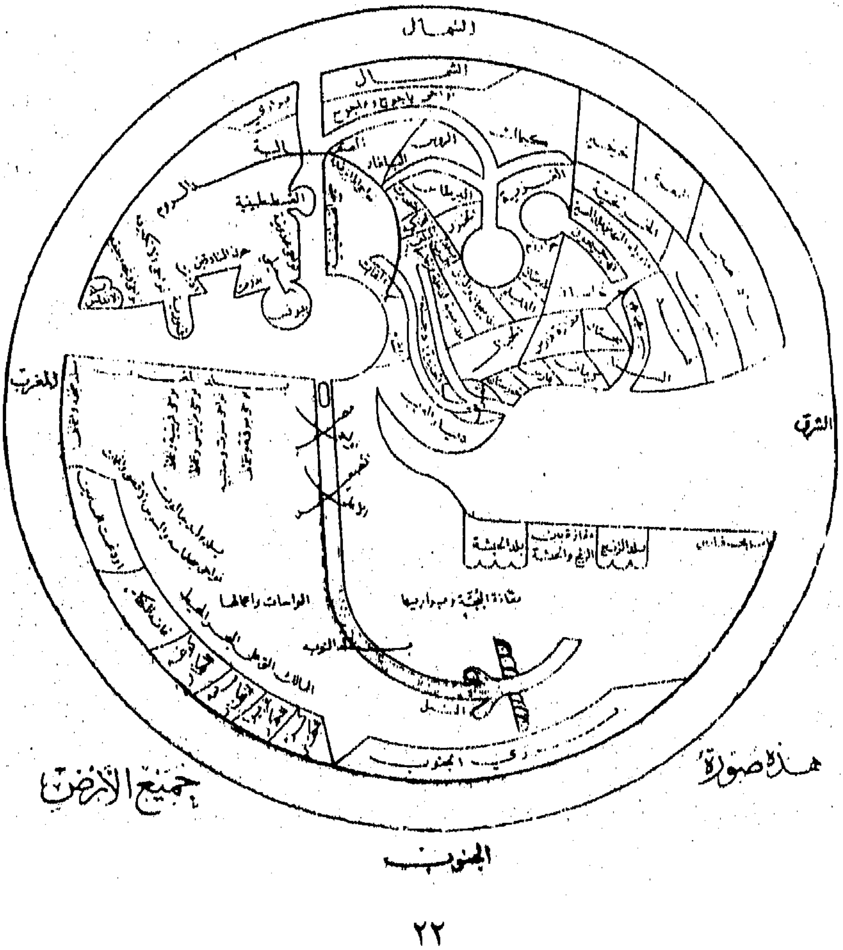
وقد تميزت هذه الخارطة والتي وضعها أكبر جغرافي الحضارة العربية الاسلامية، الشريف الادريسي المغربي (١٠٩٩- ١١٦٤) بتصوير دقيق نسبياً لمناطق الجزيرة العربية والخليج العربي والبحر الأحمر والمحيط الهندي، وحدد مواقع الصين والهند لدرجة مناسبة، أما بالنسبة لقارة افريقيا فرسم الساحل الشمالي والبحر المتوسط والبحار الداخلة فيه ومضيق جبل طارق ومواقع بعض الممالك بمستوى دقيق لدرجة كبيرة. ومن الجدير بالذكر أن رسمه لسواحل مصر المتوسطية والمطلة على البحر الأحمر، ومعالم الاراضي المصرية كان دقيقاً تماماً. فرسم النيل من منابعه بجبال القمر حتى مصبه في البحر المتوسط بصورة

شكل (٣)

خارطة العالم لابن حوقل (٣٦٧هـ) - (٩٧٧م)

خارطة العالم

لابن حوقل (٣٦٧هـ) - (٩٧٧م)



مشابهة للوقت الحاضر وحدد مواقع الواحات، غرب النيل، والصعيد والنوبه والحبشة وفزان وبلاد غانه بمواقعها الجغرافية الصحيحة، وأهتم برسم الظاهرات الطبيعية الرئيسة فرسم جبال الأطلس المغربية وحدد الصحارى ايضاً، إلا أنه وقع بنفس الخطأ الذي وقع به سابقوه حيث رسم القارة ممتدة لتحتل نصف جنوب الأرض بأجمعه واطرافها الشرقية تقع مواجهة للصين والهند وايران، .

٣- خوارط ما بعد خارطة الشريف الادريسي:

الحقيقة أن الخوارط ظهرت مع بداية مرحلة الضمور والتقلص في مجال النشاط العلمي في الحضارة العربية الاسلامية، فتبدو هذه الخوارط ضعيفة من حيث التكنيك والابداع فهي بسيطة إذاما قورنت بخارطة السيد الادريسي، بصفة عامة، ومن أهمها كانت، خوارط (القزويني- ١٢٠٣- ١٢٨٣) و(المستوفي- ١٣٣٩) و(ابن الوردي- ١٣٤٨) و(الصفاقس ١٥٥١). وربما كانت خارطة (الصفاقس) افضلها واكثرها دقة، وقد ظهرت افريقيا عليها على صورة مشابهة للوضع الحالي تقريباً بينما ظهرت في الخوارط الأخرى على ذات الصورة التي بها رسمت في المرحلة السابقة لظهور خارطة الادريسي، لاحظ الشكلين (٤) و(٥). ونستخلص مما تقدم، أن الجغرافيين العرب المسلمين عرفوا القارة من حيث الموقع والحدود بالشكل التالي:

١- من القارات الجنوبية، فرسموها تمثل نصف الأرض الجنوبي.

٢- يفصلها بحران عن كل من آسيا واوروبا، فالبحر الذي يفصلها عن آسيا يمتد مع نصف الكرة الأرضية من بحر القلزم (البحر الأحمر) ويتجه شرقاً. فاعتقدوا أن بلاد الزنج مقابلة لبلاد الصين والهند. وربما دفعهم لذلك التصور هو التقارب بالخصائص البشرية بين سكان جنوب القارة من الفرنج والبربر مع سكان الصين والهند الصينية، من حيث الشكل واللون والبحر الذي يفصلها عن اوروبا فقد أدركوه صغيراً وعلى شكل بحيرة فرسموه كذلك ورسمو البحار الداخلة فيه، ويظهر أن معلوماتهم عنه أفضل من معلوماتهم

الخارطة العربية
العدد ٨٠٤

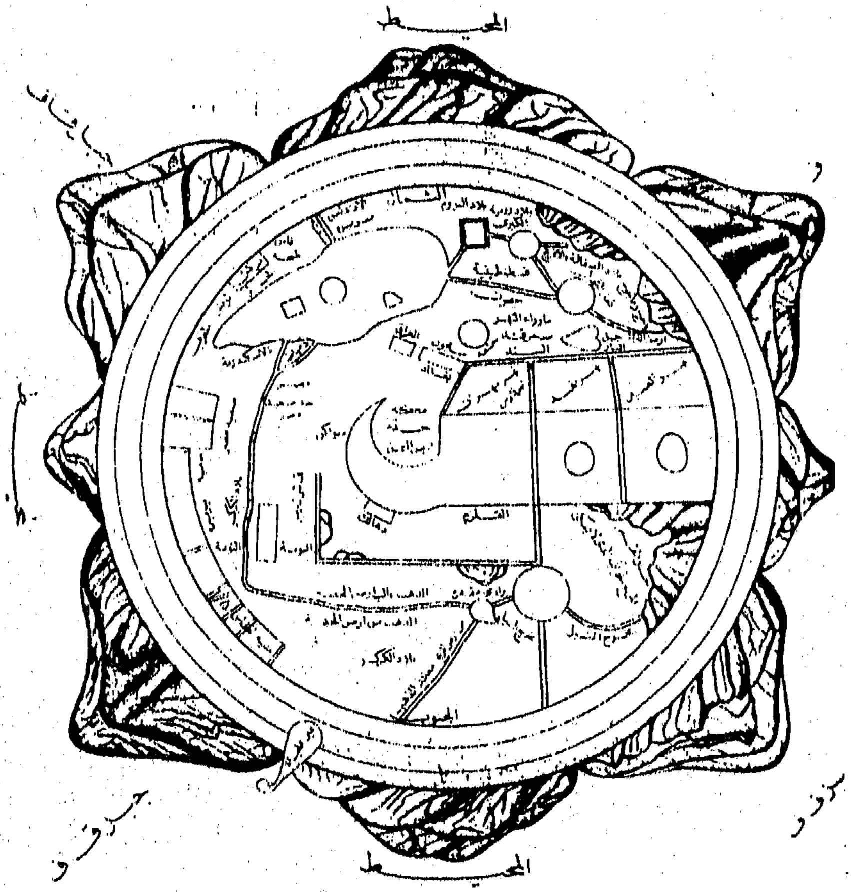
شكل (٤)

خارطة العالم

للقزويني (٦٠٠-٦٨٢هـ)-(١٢٠٣-١٢٨٣م)

[illegible]

[illegible]



[illegible]

شكل (٥)

صُورَةُ الأرض

للصفاقسي ٩٥٨هـ - ١٥٥١م



عن أي بحر آخر. ويعود ذلك إلى كونه قريباً من العالم الاسلامي، وتقع عليه جنوبا وشرقا وشمالاً وغربا ممالك الخلافة الاسلامية، كما أن اليونان سبق وأن كتبوا عنه الكثير.

٣- تتصل بقارة آسيا عن طريق بر ضيق بين مصر وبلاد الشام، وهو شبه جزيرة سيناء.

٤- تقترب من أوروبا كثيرا حيث لا يفصلها إلامضيق صغير، اطلقوا عليه اسم الزقاق، وهو مضيق جبل طارق. وكانوا يطلقون على البلاد المحيطة بهذا الزقاق بلاد «طنجة».

٥- يحيطها غربا البحر المحيط، وسموه «بحر الظلمات» وتقع فيه قريباً من سواحلها جزر «السعادات الخالدات» وهي جزر «كناري».

٦- تمتد إلى الجنوب في براري مقفرة لا ينبت فيها نبات ولا يعيش فيها حيوان لشدة الحرارة وندرة المياه، وتنتهي هذه البراري مع سواحل البحر المحيط. ويبدو أن هذا الاعتقاد جاء بتأثير من الفكر اليوناني حيث ساد الرأي بأن العمران ينتهي عند منتصف المعمورة وفي الجنوب أرض قفر.

٧- عرفوا أن بحر القلزم (البحر الأحمر) يحيط سواحل القارة الشرقية فيفصل بين بلاد الجزيرة العربية ومصر والحبشة.

أذن موقع القارة من اليابس المعروف حينذاك وحدودها كانت معروفة لدى الجغرافيين العرب المسلمين عدا جهاتها الجنوبية، وربما الأساطير والخرافات اليونانية والرومانية التي كانت تتحدث عن جنوب القارة كانت سبباً غير مشجعاً لمحاولة استكشافها والدوران حولها، حتى حان الوقت لذلك.

المساحة والمسافات:

وبصدد مساحة القارة وممالكها، فيظهر من الدراسات الجغرافية أن الاهتمام كان منصبا يومذاك على معرفة المسافات الفاصلة بين الممالك ومراكز

العمران، لمعرفة منازل البريد والوصف الدقيق للمالك الواصلة بين جهات العالم الاسلامي، ومن ذلك ظهر عدد كبير من الكتب التي اهتمت بوصف هذه الممالك، وصفا طبيعياً وبشرياً.

وبهذا الصدد يذكر «المسعودي» «... وقد ذكر ذووا العناية باخبار العالم أن أرض الحبشة وسائر أرض السودان كلها مسيرة سبع سنين، وأرض مصر جزء من واحد من ستين جزء من أرض السودان، وأن أرض السودان جزء واحد من الأرض كلها، وأن الأرض كلها مسيرة خمسمائة سنة، بآخر بلاد ولد ادريس بن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن ابي طالب عليه السلام، ومن أرض المغرب وهي بلاد تلمسان وتاهرت وبلاد فاس ثم السوس الأدنى وبينه وبلاد القيروان نحو الفي ميل وثلثمائة ميل، وبين السوس الأدنى والسوس الأقصى من المسافة نحو عشرين يوما عمائر متصلة إلى أن تتصل بوادي الرمل والقصر الاسود، ثم يتصل ذلك بمفاوز الرمل التي فيها المدينة المعروفة بمدينة النحاس وقباب الرصاص التي سار اليها موسى بن نصير في أيام عبد الملك بن مروان ورأى فيها ما رأى من العجائب...)(١٥).

وبهذا حاول «المسعودي» أن ينقل عن غيره، ما هو متعارف عليه في حساب أطوال المعمورة كلها والأراضي القفر فيها، ويظهر أن المساحات الواسعة لجنوب مصر امر معروف، كذلك شأن الأراضي الواقعة إلى غربها. والحقيقة أن الرجوع الي كتب «المسالك والممالك»، وهي كثيرة جداً، يوضح لنا حساب للمسافات الفاصلة بين ممالك العالم الاسلامي، ووصفا دقيقاً لتلك المسافات.

الأقطار الافريقية:

تناولت كتب الجغرافية العربية الاسلامية عدداً من الممالك المعروفة بذلك الوقت، بالوصف لأحوالها الطبيعية والبشرية، وكانت مصر والمغرب أكثر جهات القارة بالأهتمام والدراسة سيما مصر، وذلك لقربها من مركز الحضارة الاسلامية ولتوفر الكتابات عنها منذ أيام اليونان والرومان.

مصر

ويقول عنها «ابن الفقيه» «... سميت مصر بمصر بن اينم بن حسام بن نوح وافتتحها عمر بن العاص، قال ابن السكيت سميت مصر لأنها الحدّ وأهل هجر يكتبون في شروطهم اشترى جميع الدار بمصورها أي بحدودها... وأرض مصر محدودة أربعين ليلة في مثلها وكانت منازل الفراعنة وكان اسمها باليونانية مقدونية... وطول مصر من الشجرتين اللتين بين رفح وعريش إلى اسوان وعرضاً من برقة إلى أيله وهي مسيرة اربعين ليلة في اربعين ليلة....)[١٦].

وهنا يعلل «ابن الفقيه» سبب التسمية، ويذكر أنها الحدّ وقد يكون ذلك باعتبارها بوابة الدخول إلى القارة الافريقية بعد ترك البر الآسيوي، ويذكر أطوالها من أطرافها الشمالية إلى أطرافها الجنوبية ومن شرقها إلى غربها. ثم يتناول بعد ذلك أعمالها وعواصمها والمدن الرئيسة فيها وأهم الظاهرات الطبيعية والبشرية في كل منها والمسافات التي تفصلها.

المغرب العربي

ويبدو أنه يضم ليبيا والمغرب العربي الكبير، وقد قسمه الجغرافيون العرب المسلمون إلى ثلاث أقسام هي:

١- افريقيا: ويقصد بها في الغالب ليبيا والأجزاء الشرقية من تونس.

٢- المغرب الأوسط: ويقصد به الأجزاء الغربية من تونس وبلاد الجزائر.

٣- المغرب الأقصى: ويعني بلاد مراكش.

وقد تناولوا هذه الأقسام بالوصف والدراسة، عن الأرض والسكان، ويتحدث عنه «أبو الفداء» ... وهي مصاقبة لديار مصر من جهة الغرب والذي يحيط ببلاد المغرب المذكورة من جهة الشرق حدود وديار مصر من ظهر الواحات إلى بحر الروم عند القصبة التي على طريق المغرب بين برقة واسكندرية على بحر الروم، ومن جهة الشمال بحر الروم من القصبة المذكورة إلى فم بحر الزقاق عند سلا

وطنجة، ومن المغرب البحر المحيط من طنجة إلى صحراء لتونة في الجنوب، ومن الجنوب المفاوز الفاصلة بين بلاد السودان وبلاد المغرب وهذه المفاوز ممتدة غربا بشرق من البحر المحيط إلى ظهر الواحات من حيث ابتدأنا، وبلاد المغرب ثلاث قطع الغربية منها تعرف بالمغرب الأقصى وهو من ساحل البحر المحيط إلى تلمسان غربا وشرقا من سبته إلى مراكش ثم إلى سجلمامة وما في سمتها شمالاً وجنوباً، والقطعة الثانية تعرف بالمغرب الأوسط وهي من شرق وهران عن تلمسان مسيرة يوم شرقيها إلى آخر حدود مملكة بجايه من الشرق. والقطعة الثالثة الشرقية افريقيا، وتمتد إلى برقة إلى حدود ديار مصر، ويقال للبر الذي يوصل الى الاندلس بر العدوه وهو المغرب الأوسط والأقصى. وأما افريقيا فقابلتها صقلية والأرض الكبيرة.. وقال ابن حوقل أن تونس من افريقيا...)[١٧].

ومن هذا النص يتضح أن الجغرافيين اطلقوا اسم المغرب على جميع شمال القارة وغرب مصر أي ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وقسموه إلى ثلاثة أقسام كما هي واضحة الحدود، ثم يذكر رأى «ابن حوقل» باعتبار تونس جزء من المساحة التي يطلقون عليها اسم افريقيا.

السودان والحبشة

أطلق الجغرافيون المسلمون اسم السودان على كافة أراضي النصف الجنوبي من القارة، فعرفوا مصر والمغرب والصحراء الواسعة التي تفصلها عن أرض السودان، وربما جاءت هذه التسمية كنتيجة للظاهرة البشرية وهي اختلاف الجنس البشري، جنوب الصحراء، حيث يظهر الجنس الزنجي ذو البشرة السوداء والشعر المفلفل والأنوف التي تتصف بمنخرين كبيرين وشفاه غليظة.

ويبدو أنهم وصلوا إلى السودان والصومال والحبشة وتشاد والنيجر ونيجيريا وغانه ومالي وموريتانيا والسنغال، فهم بذلك وصلوا إلى خط الاستواء تقريباً. فعرفوا ممالكها حينذاك وهي النوبة والبجه والحبشة والتكرور وكوكو وزغاوة.

ونورد هنا أبرز مراكز العمران المعروفة والتي وصفت بدقة وجاء ذكرها في معظم كتب التراث الجغرافي العربي الاسلامي، مثل:[١٨]

دنقلة: «... مدينة النوبة قال عنها «ابن سعيد» هي قاعدة النوبة وفي جنوبها وغربيها مجالات زنج النوبة الذي قاعدتهم كوشة... وقال الادريسي دنقلة على غرب النيل...».

مقدشو: «... على بحر الهند وأهلها مسلمون...».

سفالة الزنج: «... وسفالة من الزنج وأهلها مسلمون وهم جنوب خط الأستواء...».

جرمى قاعدة الحبشة: «... وهي كرسي مملكة الحبشة وقاعدتهم...».

زيلع: «... وقال ابن سعيد مدينة مشهورة للحبشة وأهلها مسلمون...».

هدية: «... بلدة للحبشة جنوب وفات...».

وفات ويقال لها جبره أيضاً: «... من أكبر مدن الحبشة وأهلها مسلمون...».

«سحرتا»: «... سحرتا من اجناس الحبشة المشهورة...».

«بريسا»: «... قال ابن سعيد من أشهر بلاد التكرور وعلى شمال نيل غانه...».

«غانه»: «... قال ابن سعيد مدينة غانه محل سلطان بلاد غانه...».

«كوكو»: «... قال ابن سعيد مقر صاحب تلك البلاد وهو كافر يقابل من غربيه مسلمى غانه ومن شرقيه مسلمى كانم وقال في القانون كوكو واقعه بين خط الأستواء وبين أول الأقليم الأول...»

«بربرا»: «... وقال ابن سعيد قاعدة البربر وقد اسلم أكثرهم...».

«زغاوه»: «... قال ابن سعيد قاعده الزغاويين وقد اسلم أهلها...».

«جاجة»: «... وقال ابن سعيد وهي كرسي مملكة مفردة ولها مدن وبلاد وهي لسنكان الكانم...».

«ماثان»: «... قال ابن سعيد وهي في سمت ركن البحيرة المعروفة ببحيرة كوري وجنوبيها قاعدة الكانم...».

«دمدمة»: «... قال ابن سعيد ودمدمه هي التي خرج منها الدمادم على بلاد الوبه والحبشة... وهم تتر السودان...».

«بجه»: «... وهذه المدينة من بلاد البربر...».

«مركة»: «...قال ابن سعيد... وأهلها مسلمون وهي قاعدة الهاوية التي تزيد على خمسين قرية وهي على شطي نهر يخرج من نيل مقدشو...».

«قرفونة»: «قال ابن سعيد... هي أول مدن بربرا على ساحل البحر الهندي وفي شرقيها من مدن بربرا مدينة برمة...».

«الهكار»: وقد تحدث عنها «ابن بطوطة» في وصف طبيعتها وسكانها «... والهكار طائفة من البربر ملثمون... وهي بلاد قليلة النبات كثيرة الحجارة طريقها وعر...»(١٩).

ومما تقدم يمكن أن نستنتج أن الجغرافيون العرب المسلمين عرفوا القارة بالصورة التالية:

١- افريقيا العربية الاسلامية وهي الساحل الشمالي من القارة.

٢- افريقيا البربرية وتشمل الجهات الغربية من القارة والمنطقة الهجينية الفاصلة بين افريقيا البيضاء وافريقيا السوداء.

٣- افريقيا الزنجية وتسمى بلاد السودان وتشمل كافة أراضي جنوب الصحراء وما خلف المنطقة الفاصلة الهجينية.

ظاهرات السطح الطبيعية في القارة:

وضع الجغرافيون العرب المسلمون أهم ظاهرات السطح الطبيعية في القارة على الخوارط التي رسموها وهذه الظاهرات هي:

١- وادي نهر النيل:

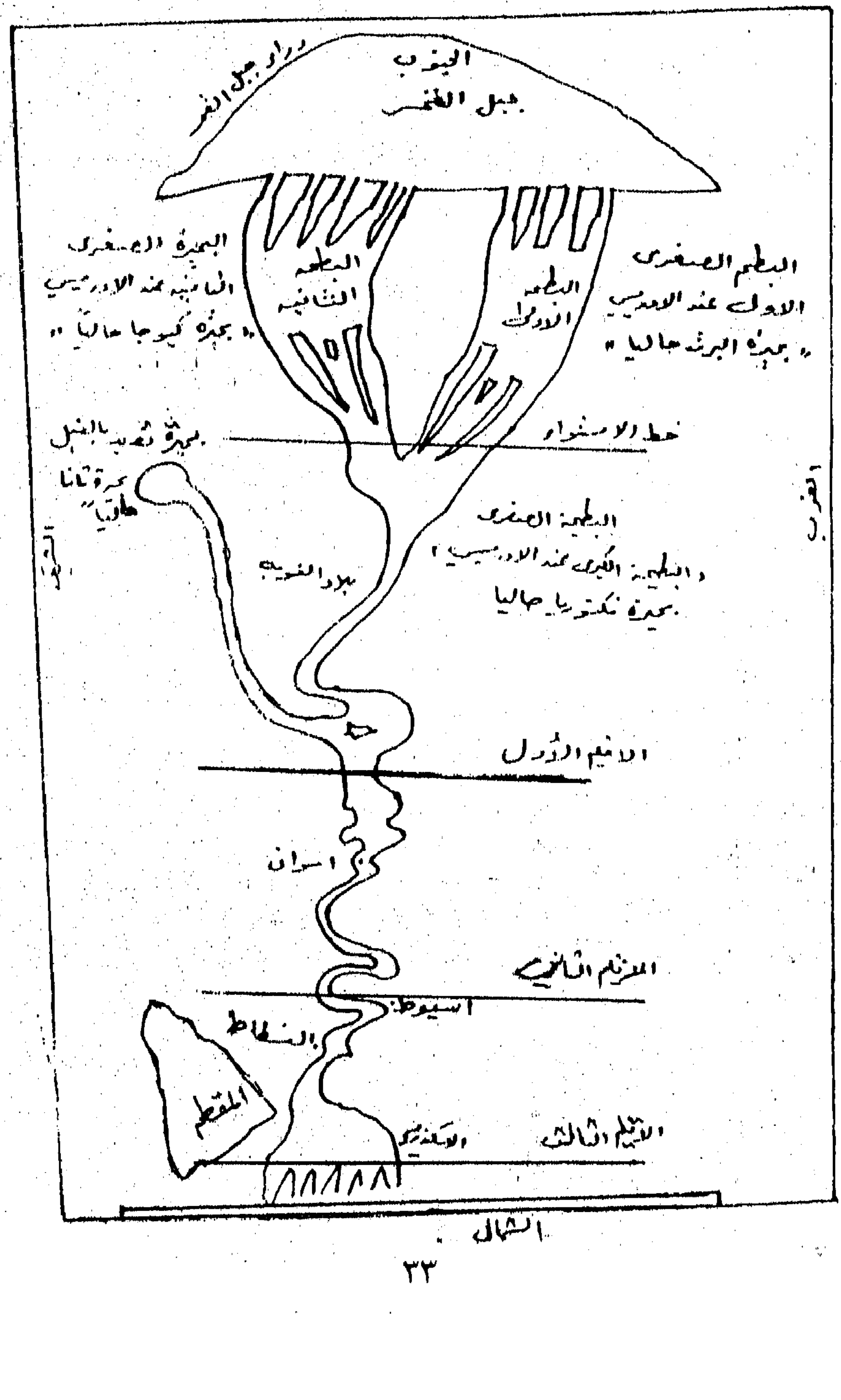
أن أول من وصف نهر النيل ووضع له خارطة من منابعه حتى مصبه «الخوارزمي» ويبدو أنه اعتمد كثيراً على ما ذكره «بطليموس»[٢٠] فعرف أن منابع النيل من جبال القمر، وأن هناك بحيرتين في المنبع يخرج منهما نهر النيل الرئيس، وسمى البحيرة الغربية بالبطيحة الأولى والشرقية بالبطيحة الثانية، وقد جعل مخرج النيل الأزرق الذي ينحدر من أرض الحبشة من بحيرة ذكر عندها أنها بحيرة تصب إلى النيل ولكنه جعل مصبه إلى الشمال كثيراً من مكان التقائه الحقيقي بالنيل الرئيس، وقد اعتبر بعض الباحثين أن خارطة الخوارزمي هذه أدق من أي خارطة عربية أخرى للنيل. وعرف مجرى الفروع السبعة له في الدلتا إلا أنه لم يحدد مجراها بل حدد مصباتها بين الاسكندر ودمياط، لاحظ الشكل (٦).

ورسم «الادريسي» في خارطته جبل القمر وهو يقابل ما يعرف اليوم جبل «كلمنجارو». وكان رأيه أن النيل ينبع من هذا الجبل فذكر عنده كلمتي (نبع النيل) كما أنه رسم ثلاث بحيرات متصلة عند المنبع، الغربية منها سمّاها البطيحة الصغرى والوسطى البطيحة الكبرى، وقد اطلق على البحيرة الشرقية امس البطيحة الصغرى كالأولى، ويقابل البطيحة الكبرى ما يعرف اليوم ببحيرة فكتوريا، كما يقابل البطيحة الصغيرة الغربية ما يسمى اليوم ببحيرة البرت، ويقابل البطيحة الصغرى الشرقية ما يسمى اليوم. ببحيرة (كويجا)[٢١].

ويبدو أن الادريسي قد تعرف على منابع النيل وقدم التفسير لفيضه صيفا. وقد سبق الاستكشافات الجغرافية التي حصلت اخيراً بمئات السنين للتعرف على منابع ومجرى النيل. وبذلك يقول «العقاد» في كتابه «أثر العرب في الحضارة الأوروبية» في الصفحة الخمسين ولا يعرف أن احدا سبق الادريسي إلى بيان الحقيقة عن منابع النيل العليا كما حفظت في الخرائط التي بقيت في بعض المتاحف الأوروبية ومنها خارطة محفوظة بمتحف سان موتين الفرنسي ترسم النيل آتيا من بحيرات إلى جنوب خط الاستواء بعد. أن تخبط الجغرافيون في وصف منابعه وتحليل فيضانه[٢٢].

شكل (٦)

خارطة نهر النيل للخوارزمي



وبصدد الفرع الشرقي الذي ينحدر من أرض الحبشة والمعروف اليوم (النيل الأزرق) ذكره «الخوارزمي» ورسمه «الأدريسي» على خارطته وجعل منبعه في بحيرة تقع في أرض الحبشة «بحيرة تانيا حالياً»، وقد جعل مصبه جنوب اسوان قريب جداً من ملتقاه بالنيل وقد سماه «الأدريسي» «نهر حارود يمين النيل» وقد قلد «الأدريسي» «البكري» في الربط بين النيل والنيجر إذ جعل مخرجيهمامن بحيرة واحدة. وقد ذاع هذا الخلط بعد ذلك في المؤلفات العربية التي نقلت عن الادريسي. وقد أطلق الادريسي. اسم «نيل السودان» النيجر وجعله يمر في أعلا بلاد غانه من السودان و يصب في البحر المحيط (المحيط الأطلسي)[٢٣].

وبقيت هذه الفكرة الخاطئة، النيل والنيجر من نبع واحد، لفترة طويلة حتى عصر الاستكشافات الجغرافية الحديثة.

ومما يذكر أن مجرى النيل رسم في بعض الخوارط يتجه نحو الشرق بعد اجتيازه بلاد الحبشة، وفي البعض منها يكون هذا الامتداد لمسافة طويلة حتى تكون منابعه في جبال القمر مواجهة لأراضي الصين. ووصف «المسعودي» بعض الخصائص الطبيعية لمجراه «... يذكر الحكماء أنه يجري على وجه الأرض تسعمائة فرسخ وقبل الف فرسخ في عامر وغير عامر حتى يأتي اسوان من صعيد مصر وإلى هذا الموضع تصعد المواكب من فسطاط مصر، وعلى أميال من اسوان جبال واحجار يجري النيل في وسطها ولا سبيل إلى جريان السفن فيه هناك، وهذه الجبال والمواضع فارقة بين مواضع سفن الحبشة في النيل وبين سفن المسلمين، ويعرف هذا الموضع في النيل الجنادل والصخور، ثم يأتي النيل الفسطاط وقد قطع الصعيد ومر بجبل الطيلمون وحجر اللاهون من بلاد الفيوم وهوالموضع المعروف بالجزيرة التي اتخذها يوسف النبي (ص) وطناً فيقطعه ثم يمضي جارياً فينقسم خلجانات إلى بلاد تنيس ودمياط ورشيد والاسكندرية كل يصب إلى البحر الرومي، وقد أحدث فيه بحيرات في هذه المواضع...»[٢٤].

وبهذا الوصف يحدد (المسعودي) مناطق الجنادل التي لا تسمح بسير السفن. ويصف «ابو الفداء» النيل «... وهو النيل العظيم المشهور الذي ليس له

نظير في الوجود وقد وصفه ابن سينا فقال وقد انفرد بثلاث صفات عن سائر انهار الأرض احدها أنه أطول انهار الأرض من مبتداه إلى منتهاه وذلك يستلزم لطافته بسبب كثرة الجريان، الثانية أنه يجري في رمال وصخور. نهر والثالثة أن الحجر فيه لا يخضر كما يخضر في غيره وهو يزيد في ايام نقص الانهار دائماً زيادته أنما هي الأمطار التي تقع في تلك البلاد ومبتداءه واو له الخراب الذي هو جنوبي خط الاستواء ولذلك تعسر الوقوف عليه...»[٢٥].

وبهذا الوصف ينقل «أبو الفداء» الخصائص المتفردة التي تميز بها النيل وهو كونه أطول انهار العالم وأنه يجري في أرض رملية أو صخرية فهو لا يجري بأرض طينية، وبذلك اصبح خال من الغرين وكثرة الرواسب ومياهه خالية من الوحل وهي صفة تكاد لا تتوفر في غيره. ويفيض أيام الصيف حيث موسم الجفاف في أنهار العالم عادة، ثم يذكر صعوبة الوصول إلى بعد خط الاستواء.

٢- **الواحات:**

ورسمها معظم الجغرافيين ووصفوها، وتقع غرب النيل في الصحراء الغربية من مصر، وهي كظاهرة طبيعية متميزة وسط الصحراء فيذكرها «أبو الفداء «... وبديار مصر الواحات وهي كثيرة النخيل والمياه الجارية من عيون هناك ويحيط بالواحات البراري كالجزيرة وسط رمال ومفاوز...»[٢٦].

ويحدد «المسعودي» موقعها ويصف طبيعة الأرض فيها فيقول «... وبلاد الواحات وهي بين بلاد مصر والاسكندرية وصعيد مصر والمغرب وأرض الأحابش من النوبة وغيرهم... وفيها ارض شبيه وزاجيه وعيون حامضة وغير ذلك من الطعوم... ويحمل من الأرض التمر والزبيب والأعناب... وتبعد عن الأحابش مسافة ستة أيام وفيها الشب وأنواع الزاج...»[٢٧].

٣- **البراري:**

أ- مفازة البجة: وترسم في الخوارط على هيئة صارى واسعة يشرف وادي

النيل بعد أرض الصعيد جنوبا وشمال براري الجنوب وتوصف بأنها مساحات مقفرة موحشة.

ب- براري الجنوب: وترسم على الخوارط على هيئة مساحات خالية خلف وسط المعمورة وتوصف بكونها رمال وصحارى وتعتبر من اقسام الأرض غير العامرة لشدة الحر فيها، وبهذا الصدد يقول «ابو الفداء» «... وقد قيل أن علة عمارة الربع الشمالي وخراب الربع الجنوبي إنما هو قرب الشمس لأنها إذا سامتت الربع الجنوبي من الأرض تكون في البروج الجنوبية في حضيضها فتكون حينئذ أقرب إلى الأرض واعظم جرما وأشد شعاعا وأثراً»(٢٨).

جـ- براري المغرب: من مصر إلى سواحل البحر المحيط وصحراء لمتونة على السواحل الغربية للقارة، ولقد ورد، عن وديانها واحجارها ورمالها والنبت القليل الذي ينمو فيها.

٤- الجبال:

أ- جبال القمر: ولعلها من أكثر المعالم التضاريسية معروفة بسبب ارتباط منابع النيل بها. وكان يقصد بها جبال (كليمنجارو) الحالية، ولتحديد موقعها اختلف الجغرافيون كما يتبين ذلك من الخوارط فالبعض منهم كالادريسي حدد موقعها قريباً من الموقع الحالي حيث يمتد نهر النيل بمجرى من الجنوب حتى مصبه شمالاً في البحر المتوسط، أما البعض منهم فرسم موقعها بعد سدّ مجرى النيل باتجاه الشمال وبالغ البعض الثالث بهذا الانحراف لمسافة طويلة حتى كاد يقابل بلاد الصين.

ب- جبل المقطم: وقد رسمه معظم الجغرافيين في خوارطهم لديار مصر، ووصفه غالبيتهم على أنه من الجبال الخيرة، أي التي تتوفر فيها موارد الخير ويقصد بها المعادن سيما المعادن الثمينة، ويذكر عنه «المقدسي» «... وبه جبل فيه معدن الذهب... وفي المقطم مقاطع حجارة بيض حسنة تنشر كما ينشر الخشب...»(٢٩).

جـ- جبل المغرب:

وقد رسم «الادريسي» بخارطته للعالم معالم جبال الاطلس وهي مطلة على الساحل الجنوبي للبحر المتوسط من طنجة حتى تونس ورسم الجبال الداخلية المطلة على الصحراء على هيئة قوس يتجه صوب الصحراء، وتحدث عنها بالوصف الدقيق.(٣٠)

د- جبال مصر الشرقية:

وحددها «الادريسي» بخارطته المذكورة وبخوارطه التي رسمها لمصر، وهي تمتد شرق مصر مع امتداد ساحل البحرالأحمر الغربي.

والحقيقة يرد وصف الأرض ومعالم التضرس فيها عند وصف الممالك وبهذه الطريقة يكاد الجغرافيون العرب المسلمون وصف جميع الأراضي الافريقية المعروفة يومذاك، فعلى سبيل المثال يذكر «ابن الفضيه» «وما بين النوبة وبلاد البجة جبال عظيمة منبعه في بلادهم معدن الزبرجد...»(٣١).

ويصف «المسعودي» أرض مصر بشكل عام «... وكانت مصر فيما يذكر أهل الخبرة أكثر البلاد جناناً وذلك أن جناتها كانت متصلة بحافتي النيل من أوله إلى آخره من حد اسوان إلى رشيد...»(٣٢).

ويصف المغرب ليستدل منه صعوبة خواصه الجغرافية على حياة سكانه «... وأما المغرب فيقسي القلوب ويوحش الطبع ويطيش اللب ويذهب بالرحمة ويكسب الشجاعة ...»(٣٣).

ويصف «ابن بطوطة» الممالك التي سلكها وأرض الممالك التي وصلها فيذكر عن طبيعة الأرض في غرب القارة «... الصحراء الرملية للرحيل من السودان إلى ايوالاتن ليس فيها ماء ولا نبت بل كثب متحركة ورياح شديدة...»(٣٤).

ولا يسع المجال هنا إلى وصف طبيعة الأرض في ممالك القارة جميعها، بل نؤكد أن «الادريسي» اهتم بوصف جهاتها الغربية بينما اهتم «ابن حوقل

والاصطخري» وغيرهم بجهاتها الشرقية فوصفوا المسالك الفاصلة بين الممالك وما فيها من صحاري ورمال واحجار وجبال ووديان وأنهار.

الأحوال المناخية:

يتضح من الآراء التي تركها الجغرافيون العرب المسلمون في المناخ أنهم آمنوا بالمباديء الرئيسة التي ارساها اليونان والرومان، فقد اعتبروا الشمس المصدر الأساسي للحرارة على الأرض كما اعتقدوا بأن أسباب اختلاف درجة الحرارة في جهات الأرض المختلفة هو ميل الشمس على خط الاستواء، أو بعبارة أخرى اختلاف زوايا سقوط الشمس على الأرض. وأخذوا بالتقسيم اليوناني للمناطق الحرارية وهي المنطقة الحارة التي تقع بين المدارين والمنطقتان المتجمدتان الشمالية والجنوبية اللتان تقعان بجوار القطبين والمنطقتان المعتدلتان اللتان تقعان بين المنطقة الحارة والمنطقتين المتجمدتين.

وبصدد التفصيلات المناخية فلم تكن كتب الجغرافية الوصفية والاقليمية تعني بالبحث فيها في البداية، غير إن تلك التفصيلات ما لبثت أن أخذت تظهر تدريجياً في كتب الجغرافية العربية ضمن المعلومات الوصفية الأخرى للمدن والامصار. ومن أوائل الكتب التي تضمنت تلك المعلومات «كتاب البلدان» لليعقوبي، ويمكن أن القول المقدسي «كان من أكثر الجغرافيين العرب الأوائل عناية بالتفصيلات المناخية، فقد أكد في كتابه على الصفات المناخية لكل اقليم وكانت تفصيلاته المناخية ذات صفة وصفية وليست تعليلية (٣٥).

وعالج «المسعودي» أثر المناخ في الصفات البيولوجية والخلقية للانسان وما ذكره ويخص بعض ممالك القارة «... وأما أهل الربع الجنوبي كالزنج وسائر الأحباش والذين كانوا تحت خط الاستواء وتحت مساحة الشمس فأنهم خلاف تلك الحال من التهاب الحرارة وقلة الرطوبة فاسودت الوانهم وأحمرت اعينهم وتوحشت نفوسهم... وتفلفت شعورهم لغلبة البخار الحار...»(٣٦).

وبهذا الوصف حاول «المسعودي» أن يقدم التعليلات المناخية للخصائص الجنسية المتميزة لسكان افريقيا السوداء، وهم الزنوج، واهتم «ابن خلدون» ... اهتماماً خاصاً في أثر المناخ في البناء الطبيعي والخلقي للبشر، فبصدد البناء الطبيعي يذكر عن الزنوج» ... فأهل الاقليم الأول والثاني شملهم هذا اللون من مزاج هوائهم للحرارة المتضاعفة بالجنوب، فأن الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة... فيكثر الضوء لأجلها ويلح القيظ الشديد عليهم وتسود جلودهم لافراط الحر...»[٣٧].

وبصدد التأثير الخلقي يذكر «... والمعروف من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع...»[٣٨].

ومما تقدم من النصوص السابقة نستنتج أن الجغرافيين العرب المسلمين عرفوا الخواص المناخية العامة لوسط القارة، فهي ضمن المنطقة الحارة والتي تسببت حرارتها من تعامد الشمس عليها، وهي بالإضافة لشدة حرارتها كانت رطبة، وشدة الحرارة وارتفاع الرطوبة كانت الأسباب في خواصهم الطبيعية، أي الجنسية في اللون والشكل، وفي خواصهم الخلقية، السلوكية، وهي وأن لم تكن معلومات مناخية دقيقة عن عناصر المناخ كافة، إلا أنه وصف شامل يتضمن أثر المناخ في الحياة البشرية لوسط القارة.

وقد عرفوا الأقليم المعتدلة ووصفوها بالاعتدال الحراري وباعتدال البناء الطبيعي والخلقي للبشر. وبهذا الصدد نذكر ما قاله «ابن رسته» عن اقليم بابل ونحوه من الممالك الواقعة في عروضه، وهي بذلك تشمل الشمال الافريقي «... وأما القوم الذين هم متباعدون عن مدار رأس السرطان إلى الشمال... فأن الشمس لا تبعد من سمت رؤسهم ولا تقرب منهم... فأن هواءهم حسن في التمزيج وموضعهم معتدل ليس فيه حر شديد ولا برد شديد وألوانهم وأبدانهم وطبائعهم معتدلة وعقولهم واخلاقهم حسنة...»[٣٩].

وترد الاشارات في وصف الحرارة وسقوط المطر وعلاقة ذلك بنشاط

الانسان وفعالياته وتنوع الحياة النباتية والحيوانية، في كل مملكة من العالم الاسلامي وايحاناً عن الملاك خارج حدوده. فيذكر «المقدسي» عن الحرارة في «مصر» «... أشد حراً من سواحل الشام ويبرد في طوبة بردا شديداً...»[٤٠] وهنا تبدو المقارنة الحرارية بين مصر وبلاد الشام. ويذكر عنها «ابن الفقيه» «... ومن عيوب مصر أنها لاتمطر ويكرهون المطر ومن عيوبها الريح الجنوب التي دعونها المريسية، وذلك يسمون أعلى الصعيد إلى بلاد النوبة مريس، فإذا هبت الريح ثلاثة عشر يوما تباعاً اشترى أهل مصر الاكفان والحنوط وايقنوا بالوباء القاتل والفناء العاجل... ومن عيوبها اختلاف هوائها لأنه في يوم واحد يختلف علهيم أهوية برد وحر...»[٤١].

وبهذا يصف «ابن الفقيه» جوانب من مناخ مصر تتعلق بنظام المطر، فهي من الأقاليم الجافة التي يندر أن تسقط عليها الأمطار، ويصف الرياح الجنوبية التي تهب من الصحراء وهي محملة بالرمال، ويصف بعد ذلك تقلبات الطقس خلال اليوم الواحد، من ارتفاع وهبوط لدرجة الحرارة.

وعن «ديار المغرب» يتحدث «ابن الفقيه» عن أهمية الامطار في النشاط الزراعي «... وليس في بلاد «طنجة» نخل ولا كروم ولا زيتون ولهم القمح والشعير والأغنام ولابقر والعسل وليس لديهم قن ولا كتان ولباسهم الصوف... وزرعهم على ماء السماء..»[٤٢].

ويتحدث «ابن بطوطة» عن طقس مدينة «كلوا» وهي كما يذكرها من بلاد السودان «... ومدينة كلوامن أحسن المدن وعمارتها من الخشب وسقف بيوتها من الديس.. والامطار بها كثيرة» [٤٣] ويصف الصحراء التي قطعها بين السودان و«ابولان» بغرب القارة «... وهي شديدة الرياح وكثبانها متحركة وفي (مدينة ابولان ذاتها يقول «وهي بلدة شديدة الحر فيها نخلات يزرعون بضلالها البطيخ...»[٤٤] ويصف بلاد «الهكار» جنوب الجزائر بأنها بلاد جافة قليلة النبات وكثيرة الحجارة.

٥- الكيان البشري للقارة:

يرى معظم المستشرقين والباحثين أن الابحاث الاقليمية والبشرية تمثل أهم اضافات الجغرافية العربية إلى العلم الجغرافي القديم. فقد امدته بالمعلومات عن شعوب العالم الذي تناولته النواحي التاريخية والانثروبولوجية والاقتصادية. والحقيقة أن المعلومات ذات الصفة البشرية هي اعظم قيمة في كتب الجغرافية العربية من أية معلومات طبيعية وطبغرافية، وهي التي تكسبها أهميتها الخاصة، ويمكن القول أن الجغرافيين العرب والمسلمين كانوا من أوائل من كتب في حقل الجغرافية البشرية وأن كتاباتهم في هذا الميدان تفوق في اتساع آفاقها وتنوعها على كتابات اليونان والرومان.[٤٥]

فلقد تناولوا بالوصف مختلف نواح الحياة البشرية متحدثين عن العادات والتقاليد والحرف والأديان والطبقات الاجتماعية والمشاكل والملبس إلى آخر ما يتصل بحياة الانسان، ولم يقتصروا على هذه الجوانب فحسب بل طرقوا مواضيع أخرى من مواضيع الجغرافية البشرية وهي علاقة الانسان بالبيئة الطبيعية، وخير من بحث في هذه العلاقة هو «عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته المشهورة».

ومن المواضيع البشرية الأخرى التي طرقها الجغرافيون العرب وكانوا رووا فيها ما يطلق عليها في الوقت الحاضر اسم «جغرافية المدن» وقد ساهم المؤرخون في قسط وافر من هذه الكتابات [٤٦]. وهناك امثلة عديدة من المؤلفات التي بحثت في وصف المدن وتاريخها وحفلت بالمعلومات الطبغرافية والاقتصادية والبشرية. ومن أمثلتها كتاب «المقريزي» الموسوم «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» والذي اشتهر باسم خطط المقريزي. وكتاب «خطط بغداد «لأبي طاهر طيفور. وكتاب وصف «مكة» للازرقي، وكتاب «الاحاطة» للسان الدين الخطيب، وكتاب الرازي في وصف قرطبة وخططها، كما أورد العلامة «ابن خلدون» في مقدمته دراسة عن نشاءة المدن وتطورها وشرح مقومات المدينة.

وبصورة عامة فأن الكتابة في الجغرافية اتسمت ببعض الاهتمامات هي:

١- الحديث عن سكان البلاد وأديانهم ومذاهبهم وعاداتهم وتقاليدهم وكل ما يتعلق بالمأكل والملبس وطراز العمارة والنشاط الاقتصادي.

٢- وصف المدن وصفاً دقيقاً مع نبذة عن تاريخها ومن سكنها وأهم الآثار فيها، وهم بذلك رواد بدراسة جغرافية المدن.

٣- دراسة طرق المواصلات وأبعادها والمدن والقرى الواقعة عليها ومظاهر الاقتصاد والمجتمعات عليها.

٤- الهجرات وتاريخ الاستيطان والعمارة:

وفي سبيل استعراض دراسة الجغرافيين العرب للأحوال البشرية في القارة وممالكها سوف نستعرض بعض الأفكار دون الإسهاب في ذلك لأن محاولة ذكر كافة ماكتبه الجغرافيون عنها يتطلب بحوثاً تفصيلية هي ليست من أغراض هذا البحث.

ولأجل معرفة أصل السكان يذكر الجغرافيون والمؤرخون العرب، بأن بعد الطوفان غرقت الأرض ومات ما عليها من نبات وحيوان وبشر ولم يبق إلا من كان مع نوح وبالتالي فأن أولاد نوح هم أجداد البشر فيما بعد، وبهذا الصدد يذكر «الطبري» «... حدثني القاسم بن بشر بن معروف قال حدثنا روح قال: حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة بن جندب عن النبي (ص) قال: ولد نوح ثلاثة سام وحام ويافث، فسام أبو العرب وحام أبو الزنج ويافث أبو الروم...»(٤٧).

ومن ذلك تبدو المحاولة لتفسير الأصل في الاختلافات الجنسية لشعوب الأرض وهي تعرف يومذاك بالشعوب: العرب والروم والزنج وكانوا يضمون الجنس الأصفر في شرق آسيا ضمن الجنس الزنجي في الغالب، ولكل من هذه الشعوب صفات تختلف عن غيرها، فالعرب هم الجنس الأسمر، والروم هم الجنس الأبيض والذي يتصف بزرقة العيون والشعر الأشقر، والزنج هم الجنس الأسود مفلفل

الشعر، وقد كتب الكثير من الجغرافيين عن أشكال هذه الأجناس وخصائصها ومناطق توزيعها على خارطة العالم المعروفة في تلك الفترة.

وعن كيفية استيطان القارة يذكر «الطبري» «... وزعم هشام بن محمد الكلبي أن بقية من الكنعانيين بعدما قتل يوشع من قتل منهم وأن افريقس بن قيس بن صيفي بن سبأ بن كعب بن زيد بن حمير بن سماء بن يشجب بن يعرب بن قحطان مر بهم متوجهاً إلى افريقية فاحتملهم من سواحل الشام حتى أتى بهم افريقية فافتتحها وقتل ملكها جرجيرا وامكنها البقية التي كانت بقيت من الكنعانيين الذين احتملهم معه من سواحل الشام قال منهم البرارة قال: وانما سموا بربرا لأن افريقس قال هلم: ما أكثر بربرتكم فسموا لذلك بربرا ...»(٤٨).

وقد أدرك الجغرافيون العرب أن القارة تنقسم إلى قسمين رئيسين هما:

١- افريقيا البيضاء حيث يعيش العرب والحاميون.

٢- افريقيا السوداء حيث يعيش الزنوج.

وما سبق ذكره عن «الطبري» ينطبق على السكان البيض، أما بالنسبة للزنوج فكان الاعتقاد السائد أنهم يعودون بالأصل إلى «كوش بن حام بن نوح». وعن السكان الزنوج وأصلهم وكيفية توزيعهم بين مشرق القارة ومغربها يتحدث «المسعودي» «... ولما تفرق ولد نوح في الأرض سار ولد كوش بن كنعان نحو المغرب حتى قطعوا نيل مصر ثم افترقوا فسارت منهم طائفة يمنة بين المشرق والمغرب، وهم أنواع كثيرة نحو الزغاوة والكانم ومركة وكوكو وغانه وغير ذلك من أنواع السودان والدمادم ثم افترق الذين مضوا بين المشرق والمغرب فصارت الزنج من المكير والمشكر وبربرا وغيرهم من أنواع الزنج، وقدمنا فيما سلف عن ذكر للبحر الحبش، الخليج البربري، وما عليه من أنواع السودان واتصالهم في ديارهم إلى بلاد الدهلك والزيلع وناصع، وهؤلاء القوم أصحاب جلود النمور الحمر وهي لباسهم ومن أرضهم تحمل إلى بلاد الاسلام وهي أكبر ما يكون من جلود النمورة وأحسنها للسروج، وبحر الزنج والاحابش هو عن يمين بحر الهند وأن كان مياهها

متصلة، ومن أرضهم يحمل الذبل من ظهور السلاحف وهو الذي تتخذ منه الامشاط كالقرون وأكثر ما تكون الدابة المعروفة بالزرافة في أرضهم وأن كانت عامة الوجود في أرض النوبة ومن سائر بلاد الاحباش...»[٤٩].

ومن ذلك يبدو أن الجغرافيين العرب استطاعوا معرفة الأقوام الزنجية التي تعيش ضمن المنطقة المدارية سواء بشرق القارة بجنوب مصر أو بغربها جنوب المغرب العربي، في غانه ومالي.

وتذكر كتب الجغرافية عن طبيعة الاستيطان البشري وتوزيعه على ساحل القارة الشمالي المطل على البحر المتوسط، فهي تذكر أن الاستيطان كان متصلاً مع طول ذلك الساحل إذ كانت العمارة متصلة من مدينة طنجة وهي آخر ركن عمراني بغرب القارة وعلى ساحل البحر المتوسط و حتى سواحل بلاد الشام، ويقول «المسعودي» والعمارة منتشرة من طنجة المتصلة بساحل المغرب وبلاد افريقية والسويس وطرابلس الغرب والقيروان وساحل برقة والرفاده والاسكندرية ورشيد وتنيس ودمياط وساحل الشام وساحل الثغور الشامية... لا تنقطع من هذا البر كله العمائر التي وصفناها من الاسلام... إلا الأنهار الجارية إلى البحر...»[٥٠]. ويستطرد الجغرافيون العرب بوصف البشر والظاهرات المتعلقة بنشاطاتهم المتنوعة عند دراستهم للأقاليم وممالكها، وكانت مصر وبلاد النوبه من أهم جهات القارة التي حصلت على نصيب جيد من هذا الوصف، يأتي بعدها المغرب ثم البلاد الزنجية بشرق القارة سيما الحبشة والبلاد الزنجية في غربها كالنيجر ومالي وغانه.

ويتدحث «ابن الفقيه» عن بعض الشعوب الزنجية «... وسكان النوبه والبجه زنوج وقبط وبربر ومن خلف بلاد (علو) أمة من السودان تدعى تكنة وهم عراة مثل الزنج وبلادهم تنبت الذهب وفي بلادهم يفترق النيل ووراء مفرق النيل وخلف الظلمة مياه تنبت الذهب في تكنة وغانه...»[٥١].

وبهذا النص يتضح أن «ابن الفقيه» كان يرى من الشعب الذي يعيش في جهات السودان والصومال وارتيريا والحبشة يتكون خليط من البربر والقبط والزنوج، وخلف ذلك يتواجد الزنوج في المناطق شبه الاستوائية ويصفهم بالعراة، في كينيا شرقا ونيجيريا وغانه والنيجر ومالي والسنغال وغينيا غربا فهم القبائل الزنجية المعروفة حينذاك «كوكو» و«مرندة» و«مراوه» ثم ينتقل بعد ذلك إلى شمال القارة فيذكر فصائل البربر وهم: هوارة وزناتة وضريسه وفصيله وورفنجومه، ويصفهم بكونهم سكان الجبال والرمال(٥٢).

ويصف «ابن بطوطة» سكان مدينة «عيذاب» على ساحل البحر الأحمر، فيقول «... وأهلها البجاة وهم سود الألوان يتلحفون ملاحف صفرا ويشدون على رؤسهم عصائب يكون عرض العصابة منها اصبعا وطعامهم البان الأبل. ويركبون المهارى ويسمونها الصهب...»(٥٣).

ثم يصف بعد ذلك سكان «مقدشو» إلى الجنوب من «عيذاب»، يصفهم بأنهم من السودان ويصف عاداتهم في صنع الغذاء وارتداء الزي، فيذكر أن طعامهم من الرز المطبوخ بالسمن. وآدامهم من الدجاج واللحم والحوت والبقول ويطبخون الموز قبل نضجه في اللبن (الحليب)، وكسوتهم فوطة يشدها الانسان في وسطه(٥٤). ويصف السكان في بعض جهات القارة المدارية، الغربية، فيذكر عن سكان مدينة «كلوا» فيذكر أن أكثر سكانها من الزنوج المستحكمي السواد ولهم شرطات في وجوههم كما هي في وجوه اليمين من جناوه...»(٥٥).

ويصف أيضاً السكان في جنوب الصحراء الافريقية، في اقليم «الهكار» فيذكرانهم من البربر وملثمون.

والحقيقة أن لملاحظات «ابن بطوطة» والتي استمدها من رحلته المشهورة، أهمية تاريخية وانثروبولوجي عن المناطق التي زارها، فكتب الكثير عن ممالك القارة الافريقية في شرقها وغربها، وكتب ملاحظات قيمة عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية لقبائل الطوارق والقبائل الزنجية التي تقطن افريقيا الغربية، ويعتبر

«ابن بطوطة» من أوائل الرحالة الذين اكتشفوا النظام الأمي الذي تتبعه قبائل الطوارق لا سيما في منطقة «ايولاثن» والجهات المجاورة، وهو النظام الذي يجعل المرأة مع قدم المساواة مع الرجل أن لم تكن اعظم شأناً منه، ويجعل النسب والوراثة متعلقين بالأم وعائلتها[٥٦].

ولا يسع المجال هنا إلى ذكر ما ورد في كتب الجغرافية العربية عن وصف شعوب وقبائل ممالك القارة سواء من افريقيا البيضاء أو افريقيا السوداء، فقد وردت بعض هذه الدراسات بشكل مستفيض حول اصل هذه القبائل وتاريخ استيطانها وأهم عاداتها الاجتماعية وطراز البناء ونشاطها الاقتصادي ولباسها ونظامها العائلي، كما أن البعض منها أهتم باللغات وتعد اللهجات والنواحي الثقافية، سيما في افريقيا البيضاء، عن عدد المدارس، وعن الحياة الدينية وأنواع المذاهب والمعتقدات.

أما الكتابة عن المدن، فكما ذكرنا، فإن الجغرافيين العرب المسلمين كانوا روادا لهذا الميدان فقد كتبوا عن كافة مدن الممالك والاقاليم الرئيسة والثانوية، الصغيرة، منها مبتدئين بتأريخها وتحديد موضعها الجغرافي وخصائصه الطبغرافية والمناخية ثم شكل المدينة وشوارعها وأزقتها وأسواقها وطبقات الناس فيها، ومما يذكر عن رحلة «ابن جبير» أنها شملت على وصف هام للمدن التي زارها حتى كادت أن تمثل أبرز جانب جغرافي في رحلته، وكان يولى الجانب الثقافي أهمية أكثر مما يولى أي جانب اجتماعي آخر،[٥٧] ولا يسع المجال أن ننقل وصفا للفسطاط وطنجة وغيرها من المدن الزنجية إذ فيها تفصيلات كثيرة وتحتاج إلى مجال آخر.

٦. الكيان الاقتصادي

من المعروف ان الجغرافية العربية الاسلامية العامة بالغت في التفصيلات التاريخية حتى طغت في كثير من الاحيان على المعلومات الجغرافية، والامثلة على ذلك كثيرة في مؤلفات السعودي واليعقوبي والحموي والبكري وغيرهم.

إن الجغرافيين الاقليميين اتجهوا اتجاها مغايرا حيث اختصروا المعلومات التاريخية واكدوا على المعلومات الجغرافية، الطبيعية، والاهتمام بمظاهر الحياة الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة. ثم مناقشة احوال السكان الاجتماعية وخصائص المدن.

فالجغرافية العربية اهتمت كثيرا بالخصائص الاقتصادية، وبهذا الصدد يذكر المستشرق -كراتشكوفسكي- عن دراس الحياة الاقتصادية للعالم المعروف ذلك الوقت، من قبل الجغرافية العربية،».... وترك لنا العرب وصفا مفصلا لجميع البلدان من اسبانيا غرباً إلى تركستان ومصب السند شرقا، مع وصف دقيق لجميع النقاط المأهولة والمناطق المزروعة والصحاري، وبينوا مدى انتشار النباتات المزروعة واماكن وجود المعادن، ولم تجتذب اهتمامهم الجغرافية الطبيعية أوالظروف المناخية فحسب بل ايضاً الحياةالاجتماعية والصناعةوالزراعة واللغة والمعتقدات الدينية، كما لم تقتصر معرفته على بلاد الاسلام وحدها بل تجاوزت بصورة ملحوظة حدود العالم كما عرفه اليونان»(٥٨).

وقد تناولت الكتب الجغرافية الاقليمية الخصائص الاقتصادية لجهات القارة، مملكة بعد أخرى، وقوم بعدقوم، تتحدث عن النشاط الزراعي واهم الحاصلات وطرق الري والتجارة والنبات والحيوان والاحجار الثمينة والمعادن.

وبالنسبة لقارة افريقيا فمن المعتقد ان مصر ثم المغرب حضيت بأكثر الكتابات الاقتصادية، ويعود ذلك إلى الاهتمام السابق بها من قبل اليونان، ثم لكونها من اقاليم العالم الاسلامي، فلا بد من القيام بالمسح الدقيق للنتاج الزراعي والتجارات ومدخولات الافراد ومصادر الدخل الاخرى، لغرض حسابات الضرائب المفروضة بالشريعة.

ويصف «المسعودي» مصر طيلة ايام السنة فيوضح النشاط الزراعي فيها، من حيث مواسمة ومن حيث اهمية النيل في اقتصادها الزراعي».... وذكر بعض الحكماء مصر فقال: ثلاثة اشهر لؤلؤة بيضاء وثلاثة اشهر مسكة سوداء وثلاثة

اشهر زمرده خضراء وثلاثة اشهر سبيكة ذهب حمراء، أما اللؤلؤة البيضاء فان مصر في شهر أبيب وهو تموز ومسرى وهو آب وقوت وهو ايلول يركبها الماء فترى الدنيا بيضاء وضياعها على روابي وتلال مثل الكواكب قد احاطت المياه بها من كل وجه فلا سبيل لبعض البلاد إلى بعض الافي الزوارق، واما المسكة السوداء فان شهر بابه وهو تشرين الاول وهاتور وهو تشرين الثاني وكيهك وهو كانون الاول ينكشف الماء عنها وينضب عن ارضها فتصير أرضا سوداء وفيها تقع الزراعات وللارض روائح طيبة تشبه روائح المسك، واما الزمردة الخضراء فان في شهر طوبه وهو كانون الثاني وامشير وهو شباط وبومهات وهو آذار تلمع ويكثر عشبها ونباتها فتصير كالزمردة الخضراء واما السبيكة الحمراء فان في شهر برمودة وهو نيسان وبشنس وهو آيار وبؤونه وهو حزيران يبيض الزرع ويتورد العشب فهو كسبيكة الذهب منظرا ومنفعة...»[٥٩]

ثم يصف مواسم الفيضان في النيل «.... ويبتدئ نيل مصر بالتنفس والزيادة بقية شهر بؤونه وهو شهر حزيران وابيب وهو تموز ومسرى وهو آب فاذا كان الماء زائدا زاد شهر قوت كله وهو شهر ايلول الى انقضائه فإذا انتهت الزيادة إلى ست عشرة ذراعا ففيه تمام الخراج وخصب الارض وربيع للبلد عام وهو ضار للبهائم لعدم المرعى والكلأ وأتم الزيادات كلها العامة النفع للبلد كله سبع عشرة ذراعاً وفي ذلك كفايتها وري جميع اراضيها وإذا ازاد على السبع عشرة وبلغ ثمان عشرة ذراعاً كانت العاقبة في انصرافه حدوث وباء بمصر وكان النيل بلغ في زيادته تسع عشرة ذراعا وذلك سنة تسع وتسعين في خلافة عمر بن عبدالعزيز...»[٦٠].

وبهذا النص يتضح الاهتمام الجغرافي لمعرفة اسس الحياة الاقتصادية في الاقاليم المدروسة. فالمسعودي حاول ان يحدد اهمية النيل في اقتصاد مصر، واهمية مواسم الفيضان والصيهود (ادنى مستوى لتصريف النهر او انخفاض المياه إلى ادنى حد في النهر) حيث يقدم أثر كل منهما على الاقتصاد، فارتفاع منسوب المياه في النيل الى ست عشرة ذراع هو افضل منسوب لانه يغطي حاجة

الاراضي الزرعية ففيه تمام الخراج وخصب الارض وريع عام للبلد والافضل منه إذا ارتفع إلى سبع عشرة ،فبذلك تروى كافة اراضيها حتى المراعي الطبيعية التي توفر الكلاء للبهائم، اما إذا زاد على ذلك فيحصل الوباء من الفيضان.

ويتحدث ايضاً عن بحيرة تنيس ودمياط... فكان مما سئل عنه الخبر عن بحيرة تنيس ودمياط فقال: كانت ارضا لم يكن بمصر مثلها استواء وطيبة تربة وقرارة وكانت جنانا ونخلا وكرماً وشجرا ومزارع وكانت فيها مجاري على ارتفاع من الارض ولم ير الناس بلدا كان احسن من هذه الارض ولا احسن اتصال من جنانها وكرومها، ولم يكن بمصر كورة يقال انها تشبهها إلا الفيوم وكانت اكثر خيرا من الفيوم واخصب واكثر فاكهة ورياحين من الاصناف الغريبة...»[٦١].

وعن الثروة الحيوانية في النيل يذكر «الاصطخري»...، وهو اكبر من دجلة والفرات إذا جمعا وماؤه اشد حلاوة وبياضا من سائر انهار الاسلام، وفي هذا النهر يكون التمساح وسمكة يقال لها الرعاوه يرتعش من يصطادها ويخيفها جدا ونوع آخر من السمك له رجلين ويدين....[٦٢]. وعلى سبيل ذكر الثروات الاقتصادية، يذكر «البط» وقالوا البط ترعى بمصر كما ترعى «الغنم»، و «الثعابين» وليس هي في بلد غيرها، وفيها «الصوف والكتان» وليس لغيرها مثلما لها من جودة، وفيها الاودية والمراتع للحيوانات، وهي البغال المصرية والخيل العتاق والمطايا من الابل والحمير المريسية.[٦٣].

ويتحدث «المقدسي» بالتفصيل عن اقتصاديات المدن المصرية، فيقول ان مصر بلاد التجارات يرتفع منها اديم جيد، ومن الصعيد الارز والصوف والتمور والنحل والزبيب، ومن دمياط القصب ومن الفيوم الارز والكتان، ومن المدن والقصبات القفاف والحبال من الليف والزنبق والحيتان والحصر والحبوب والرخام والخل والجلود والموز والشمع والحمص..[٦٤]

وعلى سبيل ذكر العجائب من النبات والحيوان تذكر عادة «حشيشة الدقس» ويتخذ منها حبال للسفن تسمى «القرقس»، وتذكر ايضا الشجرة التي تسمى

باليونانية «الومقس» كما تذكر تماسيح النيل وحيوان «النمس التي تقطع الثعبان نصفين بزفرة واحدة وفرس النيل التي تاكل التماسيح وحيوان «الخلد» وهو دابه اعمى.

المغرب:

وعند مراجعة الكتب الجغرافية العربية الاسلامية نلاحظ ان بلاد المغرب، وهي تعنى غرب مصر وحتى بحر الظلمات، المحيط الاطلسي، اي كل من ليبيا وتونس والجزائر ومراكش، ان هذه الجهات قد حظيت باهتمام بالدراسة الجغرافي الاقتصادية، فذكرت بكثير من التفصيل مواسم الزراعة واهم الحاصلات واساليب الري ونوعية التربة، ثم ذكرت الموارد الطبيعية من النبات والحيوان والمعادن واهم التجارات. ويصف «المقدسي» « ... هو اقليم طويل كبير يوجد فيه اكثر ما يوجد في سائر الاقاليم مع الرخص، كثير النخيل والزيتون... جيد الهواء والماء... ويكثرون التجاراتوالتغرب....».

وبهذا الوصف يقدم «المقدسي» خصائص اقتصادية هامة حيث يتضح انه اقليم واسع المساحة وبسبب سعة مساحته. فقد تنوعت خصائص الجغرافية، وانعكس ذلك في تنوع موارده واقتصادياته، فكان من الاقاليم التي تتوفر فيها الحاجات وهي رخيصة الثمن، ويمتاز بكثرة النخيل والزيتون وهو جيد الهواءوالماء ولهاتين الخاصيتين اهميتها باقتصاد الاقليم فالهواء الجيد يعني المناخ المعتدل والمناسب للفعاليات الزراعية، والماء الجيد يعني توفره لدرجة أنه يغطي الحاجة. ثم يصف سكان الاقليم بانهم يكثرون التجارات وهذا يعني انهم يرغبون باحتراف التجارة، وربما كان للموقع الجغرافي المتطرف عن العالم الاسلامي وقربه من البحر وتنوع منتجاته كانت خصائص جغرافية مشجعة للتوجه نحو التجارة.

وفي مكان آخر يتحدث فيقول: «.... قد غاب في الزيتون، مدنه، وبالتين وبالكرمات ارضه يجري خلالها الأنهار ويملأ غيطانها الاشجار، الا انها بعيد الاراف كثير المفاوز صعب المسالك كثير المهالك، في زاوية الاسلام موضوع وبعضه خلف البحر مقطوع...» ويتضح تماما من الوصف ان مناطق الساحل

خضراء عبارة عن بستان كبير تمتد في جنوبها المفاوز والبراري وهي مناطق الصحراء، وفي زاوية الاسلام يعني تطرفه من العالم الاسلامي اما بعضه خلف البحر مقطوع، فالمعروف ان الجغرافيين والمؤرخين المسلمين اعتبروا الاندلس جزء من بلاد المغرب(٦٥).

وعن منتجات اجزائه وحركة التجارة فيه يقول: «...وبه تجارات تحمل، من برقة ثياب الصوف والاكسية، ومن اصقلية الثياب المقصورة الجيدة، ومن افريقيا الزيت والفستق والزعفران واللوز والبرقوق والمزاود والانطاع والقريب، ومن فاس التمور وجميع ما ذكرنا....» ومما يذكرون من عجائب الاقليم هو «ابو قلمون» وهي دابة تحتك بحجارة على شط البحر فيقع منها وبرها، وهو، في لين الخز لونه لون الذهب لا يغادر منه شيئا وهو عزيز الوجود، فيجمع وينسج منه ثياب تتلون في اليوم الوانا، ويمنع السلطان من حمل ذلك الى البلدان الا ما يخفى عنهم، ربما بلغ الثوب عشرة آلاف دينار....»(٦٦)

ويتحدث «ابو الفداء» عن مدن الاقليم وقراه من حيث خصائصها الاقتصادية فبعد ان يحدد موضع مدينة «طنجة» يذكر عنها «وماء طنجة مجلوب من قنى اليها من بعد. وطنجة كثيرة الفواكه لا سيما العنب والكمثري...»(٦٧).

وعن مراكش «... بناها يوسف بن تاشقين في ارض صحراوية وجلب اليها المياه واكثر الناس فيها البساتين فكثر وخمها ولا يكاد الغريب يسلم فيها من الحمى...». ويصف مدينة «فاس» «... ولها جنات كثيرة وزرع وضرع وعلى نهرها الغربي ثلاثة الاف رحى وعلى حافتي النهر القرى والمدن الجليلة وهي تشبه دمشق والجبال تكتنفها ونهرها يصب في البحر المحيط.

وشاع ان في داخلها عيونا تنبع على عدد ايام السنة. قال ابن سعيد ولم ار قط حمام داخله عين ينبع إلا في فاس....».

اما عن مدينة «أودفست» «... وهي حارة جداً قال وامطارهم في الصيف ويزرعون عليه الحنطة والدخن والذرة واللوبياء والكرسنة والنخل ببلادهم كثير جدا وليس ببلادهم من الفاكهة غير التين... قال ولها اسواق جليلة...».

وعن مدينة الجزائر «... وشرب اهلها من عيون على البحر ومن آبار وهي عامرة أهلة وتجارتها مربحةواسواقها عامرة...».

ثم يحدد موضع مدينة «برقة» بكل دقة ويصفه ويتحدث عن اقتصادياتها «... ولبرقة جبلان فيها عدة ضياع نفيسة وعيون ماء جارية ومزارع وآثار بناء للروم جليل واسعارها على سائر الاوقات رخيصة جدا، ويجهز منها إلى مصر القطران والشراب والضأن الكثير، قال ولها ساحل ترسى به المواكب....

والحقيقة لا يسع المجال الي ذكر كافة المدن التي ذكرها «ابو الفداء» في تقويمه. فأخذنا لذلك بعضا منها لتتضح الخصائص الاقتصادية للجهات الشمالية من القارة والواقعة غرب مصر ومنها نستخلص ان الجهات الساحلية اعتمدت في زراعتها على سقوط الامطار او مياه العيون، واهم حاصلاتها الزراعية وهي محاصيل حوض البحر المتوسط، الزيتون والحمضيات، حيث يؤكد على كثرة بساتين الفاكهة والنخيل، كما اكد على زراعة الحبوب، والحنطة والرز وغيرها،واشار إلى وجود الحيوانات، كالاغنام والابل، كما اشار إلى وجود صحاري إلى الجنوب من الساحل العامر المزروع. وقد ذكر الجغرافيون العرب المسلمون خصائص الصحراء الواسعة الفاصلة بين الجهات الشمالية من القارة وبلاد السودان.

افريقيا السوداء:

يتحدث الجغرافيون والرحالة العرب المسلمون عن بلدان هذا الجزء من القارة ويهتمون بذكر الجوانب الاقتصادية من حياتهم، وعند دراستهم لها يعتبرونها اقليما واحدا يمتد من شرق القارة إلى غربها.

ومما يذكره المقدسي «عن بعض خواص هذا الاقليم الاقتصادية»... وهي بلدان مقفرة واسعة شاقة وهم اجناس كثيرة وفي جبالهم عامة ما يكون في جبال المسلمين من الفواكه، غير أن اكثرهم لا يذوقونه ولهم فواكه أخر واغذية واطعمة وحشائش لا توجد عندنا، ولا تعامل بينهم بالذهب والفضة، أما القرماطيون فتعاملهم بالملح والنوبه والحبش بالثياب...[٦٨].

ومما تقدم يتضح مقدار التنوع في الحاصلات، فبالاضافة إلى انبات الثمار التي يعرفها العالم الاسلامي تنمو نباتات اخرى واشجار اخرى لا يعرفها العالم الاسلامي، ويذكر اسلوب تعاملهم التجاري البدائي حيث لا يعرفون النقود والمعادن الثمينة بل يعتمدون اسلوب المقايضة. ويذكر «المسعودي» الكثير عن الموارد الاقتصادية الطبيعية المتوفرة في هذه الجهات من القارة فيتحدث عن الفيلة والزرافةوكثيرا عن عجائب وغرائب الاقليم... «... والفيلة في بلاد الزنج في نهاية الكثرة وحشية كلها وغير مستأنسة، والزنج لا تستعمل منها شيئا في حروب ولا غيرها، بل تقتلها... فمن ارضهم تجهز انياب الفيلة، في كل ناب منها خمسون ومائة من «...»[٦٩]

وفي مكان آخر يقول: «... ودوابهم البقر وليس في ارضهم فيل ولا بغال ولا ابل ولا يعرفونها.....

وعن الزرافة يذكر «.... والزرافة عجيبة الفعل في ألفها وتوددها الى اهلها وهي كالفيلة منها وحشية ومنها مستأنسة اهلية...».

ويعود ثانية ليتحدث عن الفيلة وهي اشهر حيوانات الاقليم والصفة المميزة له، فيذكر عنها «والفيلة لا تنتج ولا تتوالد الا بارض الزنج والهند ولا تعظم انيابها بارض السند والهند على حسب ما تعظم بارض الزنج، والزنج تتخذ من جلود الفيلةالدرق...».

ويذكر لنا ان العاج الذي تجمعه القبائل الزنجية لا تنتفع به فلا تستعمله ولا تتحلى به وانما يتحلون عادة بالحديد، وعن استعمالهم الابقار في الحروب فانهم يسرجونها ويضعون لها لجم.

ويصف بعد ذلك طعامهم «..واكلهم الموز وهو ببلادهم كثير، والغالب على اقوات الزنج الذرةونبت يقال له الكلاري يقلع من الارض كالكماءة... ويعم سائر الزنج اكل النارجيل. وسنستعرض خواص بعض المدن التي وصفها الرحالة «ابن بطوطة» وكتب عنها «ابو الفداء» وغيرهما.

فيتحدث «ابن بطوطة» عن مدينة «عيذاب» «... مدينة عيذاب كبيرة كثيرة الحوت واللبن، ويحمل اليها الزرع والتمر من صعيد مصر... وطعامهم ألبان الابل....» وعن مدينة «مقادشو»... مدينة كبيرة... لسكانها جمال واغنام كثيرة واهلها تجار اقوياء وبها تصنع الثياب التي تحمل لديار مصر وغيرها...[٧٠].

ويذكر «ابو الفداء» عن «بريسا» وهي شمال «غانه».«... وفي ديارهم القطن والابنوس عندهم كثير... واهلها تجار متجولون...»[٧١].

وعن «غانة» فقد ذكر «... وإلى غانة تسير التجار المغاربة من سجلساسة في بر مقفر ومفاوز عظيمة... ولا يحضرون منها غير الذهب الاحمر...».

وعن «دنقلة مدينة النوبة» «وطعامهم الذرة والشعير والتمر يجلب اليهم واللحوم التي يستعلمونها لحوم الابل طريقة مطحونة ومقدة وفي بلادهم الزرائف والفيلة والغزلان..». ان الخواص التي ذكرت عن اقتصاديات بلاد الزنج وعن مدنهم تدل على تحديد دقيق لطبيعة هذا الاقتصاد الغابي الاستوائي وشبه الاستوائي.

ومما تقدم يتضح جليا الاهتمام بموضوعات الاقتصاد والموارد الطبيعية في الجغرافية عند العرب المسلمين، وبذلك فان التراث الجغرافي العربي خلف تراكما من المعرفة، الطبيعية والبشرية، الاجتماعية، الاقتصاديةلجهات العالم المعروف يومذاك، وقد ادرك الجغرافيون العرب المسلمون التنوع الاقليمي الجغرافي وعرفوا آثاره في تنوع الانتاج الاقتصادي والفعاليات البشرية الاقتصادية، وجاء تعليلهم للتنوع الاقليمي حسب روحية الاسلام في تفسير الظاهرات ووفق تراكم المعرفة في حينه «ولولا ان الله عز وجل «خص» بلطفه كل بلد من البلدان واعطى كل اقليم من الاقاليم بشيء منعه غيرهم لبطلت التجارات وذهبت الصناعات ولما تغرب احد ولا سافر رجل ولتركوا التهادي وذهب الشرى والبيع والاخذ والعطاء، إلا ان الله عزوجل اعطى كل صقع في كل حين نوع من الخيرات...». ان هذا يحدد نظرية التجارة واسباب ظهورها وتطورها من وجهة نظر علمية دقيقة حيث تكمن الاسباب الاساسية في التباين والتنوع في الخصائص الجغرافية لجهات سطح الارض

والتي تسبب التنوع بالحاصلات الزراعية والموارد الطبيعية، النباتية والحيوانية، والمعادن وغيرها، ولا بد ان يرتبط التفسير لهذه الظاهرة البشرية الاقتصادية والطبيعية، حيث تتأثر بعوامل طبيعية سببت الاختلاف في خواص الاقاليم، بوجهة النظر الدينية ايضاً.

الخلاصة:

نستنتج مما تقدم ان الجغرافيين العرب المسلمين تناولوا قارة افريقيا بالدراسة والوصف بالنقل والترجمة والترحال، وكان التراث الجغرافي اليوناني والروماني من المصادر الاساسية التي اعتمدوها الا انهم لم يقفوا عند حدود هذا التراث بل تجاوزوه بمعرفة نواقصه واخطائه ومواطن الخلل فيه.

(١) فالمعروف ان الاعتقاد لدى الجغرافية اليونانية بان القارة الافريقية تنتهي بارض يابسة بينما آمن العديد من الجغرافيين العرب والمسلمين بكونها محاطة بالبحار، ويثبت «بالاشير» وصاحبه «درمون» في كتابهما «منتخبات من آثار الجغرافيين في القرون الوسطى- الطبعة الثانية ١٩٥٧» وفي الصفحة «٢٤١» راى «البيروني» بذلك والذي يؤكد فيه بأن علامات اتّصال البحر جنوب افريقيا بالبحر المتوسط «الاوقيانوس» موجوده وان لم يشاهد احد ذلك الاتصال.

(٢) واعتقد «بطليموس» ان حدود الجهات الافريقية المأهولة تقع شمال خط الاستواء باعتبار أن منطقة خط الاستواء شديد الحرارة لدرجة انها لا تسمح بالعمران، بينما ادرك «الادريسي» أن الجهات المعمورة تمتد جنوباً بعد خط الاستواء حتى تناولت دراساته منابع النيل والنيجر.

(٣) واذا وصلت المعلومات الجغرافية اليونانية الى حدود الصومال، شرق القارة فقط، فقد وصل الجغرافيون العرب الى ما بعد خط الاستواء الى خط عرض (٢٠) جنوباً فشملت معلوماتهم «موزمبيق» التي اطلقوا عليها اسم «سفالة الزنج»

ولا يسع المجال هنا الى ذكر كل ما يؤكد ان التراث العلمي الجغرافي الذي خلفه العرب المسلمون، اعتمد على الجهود العربية في الرحلة والمشاهدة وعلى مصادر التراث للحضارات السابقة لهم ومنها الحضارتين اليونانية والرومانية فهو تراث علمي عربي اسلامي وله مميزاته التي يمكن ان تميزه سواء على صعيد نظرياته او الجهود الميدانية في الوصف والكتابة.

ومما يعطي اهمية بالغة للتراث الجغرافي العربي أنه كتب بعد المشاهدة الفعلية وهذه هي منهجية الفكر الجغرافي المعاصر فمعظم المعومات المثبتة عن العالم الذي درسوه جاءت من المشاهدة الفعلية عن طريق الرحلة الجغرافية والاسفار. فقد ساح كل جغرافي الى جهات معينة من العالم الاسلامي اذا لم تكن لديه فرصة ان يسيح بالعالم كله.

وهكذا فان الادب الجغرافي العربي حفظ التراث الجغرافي اليوناني والروماني وغيرهما من تراث الحضارات القديمة، واضاف القيم الجديدة في ميدان المعرفة الجغرافية، من جهود الجغرافيين العرب والمسلمين الذين غامروا وبذلوا الكثير من اجل الاكتشاف والوصف وتقديم التفسيرات الصحيحة للظاهرات الطبيعيةوالبشريةوالاقتصادية.

وبالنسبة لقارة افريقيا فاقت المعلومات العربية كثيرا المعلومات التي خلفتها الحضارةاليونانية من حيث سعةالرقعة المكانية، ومن حيث الاهتمام بعناصر سطح الارض، الطبيعية والبشرية والنشاطات الاجتماعية والاقتصادية.

واخيرا نشير ان الاهتمام كان اوسع بمصر وذلك لكونها قريبة من قلب العالم الاسلامي ثم بالمغرب لكونه ضمن هذا العالم، اما افريقيا الزنجية فمن البديهي ان تحظى باهتمام اقل لكونها خارج العالم الاسلامي ولبعدها ولظروفهاالجغرافية، الطبيعية والبشرية، الصعبة، ومن الكتب الجغرافية الاقليمية التي اهتمت بمصر بالتفصيل نورد امثلة وهي «كتاب البلدان» «لليعقوبي» و «صورة الارض» لابن حوقل و «احسن التقاسيم» للمقدسي وكتابات «المسعودي» و «الافادة

والاعتبار» لعبد اللطيف البغدادي. اضافة إلى الموسوعات ومنها «صبح الاعشى، للقلقشندي. اما عن بلاد المغرب فاوسع التفصيلات في «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» «للأدريسي» و «مسالك الممالك » للبكري وغيرهما. وقد اشرنا إلى هذه المصادر ليستفيد منها من يرغب الاستزادة في التعرف على الجهود الجغرافية العربية وعلى قارة افريقيا بذلك التاريخ.

الهوامش

١. انظر

- الراوي، حبيب (١٩٧٤) المصادر اللغوية للجغرافية عند العرب، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، المجلد الثامن،- ص،٣٥-٦٨.
- السامرائي، ابراهيم (١٩٦٧) ما يفيد الجغرافي من مادة لغوية، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، المجلد الرابع.
- جمال الدين، محسن (١٩٦٣) معجم البلدان لياقوت الحموي، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، المجلد الثاني.

٢. الراوي، مصدر سابق، ص٣٠-٦٠.

٣. السامرائي ابراهيم، بداية الفكر الجغرافي عند العرب، مجلة الجمعية الجغرافية العراقية.

٤. شوكت، ابراهيم (١٩٦١) تفكير العرب الجغرافي وعلاقةاليونان به وحقيقة كتاب جغرافية بطليموس واصالته، مجلة الاستاذ (كلية التربية) جامعة بغداد، المجلد التاسع، ص٨-٣٢.

٥. انظر:

- ابو سعد، احمد (١٩٦١) ادب الرحلات، منشورات دار الشرق الجديدة، بيروت.
- نفيس، احمد جهود المسلمين في الجغرافيا، (سلسلة الالف كتاب)، ترجمة فتحي عثمان، مطابع دار القلم، القاهرة.
- سوسة، احمد (١٩٥٩) العراق في الخوارط القديمة، (مطبوعات المجمع العلمي العراقي) مطبعة المعارف، بغداد.
- كراتشكوفسكي، اغناطيوس يلويانوفتش (١٩٦٣) تاريخ الادب الجغرافي العربي، (نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم) القسم الاول (جامعة الدول العربية، الادارة الثقافية، مطعبة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ص٢٢).

٦. المصدر السابق ٢٠ – ٢٧ .
٧. المصدر السابق، ص ٢٢ – ٣٠ .
٨. خصباك، شاكر (١٩٧٥) في الجغرافية العربية، الطبعة الأولى، مطبعة دار السلام، بغداد، ص١١٦.
٩. المصدر السابق، ص١١٦.
١٠. المصدر السابق، ص١١٦.
١١. سوسه،احمد (١٩٧٤) الشريف الادريسي، الباب الاول (خارطة بطليموس).
١٢. المسعودي،ابي الحسن علي بن الحسين بن علي (١٩٦٥) مروج الذهب وجواهر المعدن، (تحقيق يوسف اسعد صاغر)، الطبعة الاولى، دار الاندلس للنشر، بيروت، ص١٠٢.
١٣. المقدسي، المعروف بالبشاري (١٩٠٩) احسن التقاسين في معرفة الاقاليم، الطبعة الثانية، ليدن– مطبعة بريل ص٥٩، ص٩٠.
١٤. خصباك، مصدر سابق، ص٤٠.
١٥. المسعودي مصدر سابق، ص١٨٦.
١٦. ابن الفقيه، ابو بكر احمد بن ابراهيم الحمداني (١٣٠٢) مختصر كتاب (البلدان، ليدن، مطبعة بريل، ص٥٦–٥٨).
١٧. ابو الفداء، عماد الدين بن محمد بن عر (١٨٤٠)، تقويم البلدان، باريس، دار الطباعة السلطانية، ص١٢٢.
١٨. المصدر السابق، ص١٣٩–١٦٢.
١٩. ابن بطوطة، (١٩٦٤) رحلة ابن بطوطة، دار صادر، دار بيروت، ص٦٩٩.
٢٠. سوسه، الشريف الادريسي، مصدر سابق، الباب الثاني، ص ٤٠٦ .
٢١. المصدر السابق، ص ٤٠٨.
٢٢. المصدر السابق، ص ٤٠٨.
٢٣. المصدر السابق، ص ٤٠٨.
٢٤. المسعودي، مصدر سابق، تحقيق (محمد محيى الدين ج١ ، الطبعة الرابعة ص ١٠٠–١٠١.
٢٥. أبو الفداء، مصدر سابق، ص ٤٥.

٢٦. المصدر السابق، ص ١٠٥.
٢٧. المسعودي، مصدر سابق (تحقيق محيى الدين) ج١، الطبعة الرابعة، ص ٢٨.
٢٨. ابو الفداء، مصدر سابق، ص ٥.
٢٩. المقدسي، مصدر سابق، ص ٢٠٩.
٣٠. المسعودي، مصدر سابق (تحقيق محمد محيى الدين)، ص ٢٩.
٣١. ابن الفقيه، مصدر سابق، ص ٧٩.
٣٢. المسعودي، مصدر سابق (تحقيق محمد محيى الدين)، ص ٣٤٥.
٣٣. المصدر السابق، ص ٦٢.
٣٤. ابن بطوطة، مصدر سابق، ص ٦٧٦.
٣٥. خصباك، مصدر سابق، ص ١٧٩.
٣٦. المصدر السابق، ص ١٨٢.
٣٧. المصدر السابق، ص ١٨٧– ١٨٨.
٣٨. المصدر السابق، ص ١٨٨.
٣٩. المصدر السابق، ص ١٨٩.
٤٠. المقدسي، مصدر سابق، ص ٢٠٢.
٤١. ابن الفقيه، مصدر سابق، ص ٢٠٢.
٤٢. المصدر السابق، ص ٨٤.
٤٣. ابن بطوطة، مصدر سابق، ص ٢٥٨.
٤٤. المصدر السابق، ص ٦٧٧.
٤٥. خصباك مصدر سابق ص ١٦.
٤٦. المصدر السابق، ص ١٦.
٤٧. الطبري، ابي جعفر محمد بن جرير (١٩٦٧) تاريخ الطبري (ج١).(تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم (ذخائر العرب ٣٠)، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر، ص ٢٠٩).
٤٨. المصدر السابق، ص ٤٤٢.
٤٩. المسعودي، مصدر سابق، ص ٤٢٢.
٥٠. المصدر السابق، ص ١٢٢.

٥١. ابن الفقيه، مصدر سابق ص ٧٩.
٥٢. المصدر السابق، ص ص ٨٢.
٥٣. ابن بطوطة، مصدر سابق، ص ٥٢.
٥٤. المصدر السابق، ص ٢٥٥.
٥٥. المصدر السابق، ص ٢٥٧.
٥٦. خصباك، مصدر سابق، ص ٢٩٨.
٥٧. المصدر السابق، ص ص ٢٥٣.
٥٨. كراتشكوفسكي، مصدر سابق ص ٢٢.
٥٩. المسعودي، المصدر السابق، ص ٣٣٩.
٦٠. المصدر السابق، ص ٣٤٢.
٦١. المصدر السابق، ص ٣٤٨.
٦٢. الاصطخري، مصدر سابق، ص ٢٨.
٦٣. ابن الفقيه، مصدر سابق، ص ٩٩.
٦٤. المقدسي، مصدر سابق، ص ٢٠٢.
٦٥. العبادي، أحمد مختار (بدون تاريخ) في تاريخ المغرب والاندلس (مؤسسة الثقافة الجامعية) الاسكندرية، ص ١١.
٦٦. المصدر السابق، ص ٢٤١.
٦٧. ابو الفداء، مصدر سابق، ص ١٣٣.
٦٨. المقدسي، مصدر سابق، ص ٢٤٢.
٦٩. المسعودي، مصدر سابق ج١، ص٣٢٥.
٧٠. ابن بطوطة، مصدر سابق، ص٢٥٢-٢٥٣.
٧١. ابو الفداء، مصدر سابق، ص١٥٧-١٥٩.
٧٢. ابن الفقية، مصدر سابق، ص٢٥١-٢٥٢.

الفصل الثاني

ابن خلدون في التراث العلمي

وضح ابن خلدون رؤيتة للتاريخ البشري في مقدمته، فكتب في الباب الأول: «عن العمران البشري وجغرافيا العالم، وتأثيرات التغاير الجغرافي على سايكولوجية المجتمعات البشرية، وتكوينها الجسدي ونشاطها الحضاري. ويصف تطور المجتمعات البشرية ابتدأ من طور بداوتها الأولى مروراً بالزراع وانتهاءً بالحضارة، ثم أفولها[1].

لقد سبق ابن خلدون غيرة من الجغرافين في رسم صورة المجتمعات والدول والمراحل التي تمر بها وهي مرحلة الطفولة ثم الشباب ثم الكهولة والسقوط.

ويلاحظ على هذا الباب أن ابن خلدون يسرف في وصف جغرافية العالم بصورة خاصة معتمداً على المهارات فاقتصر دوره على تجميع المادة الجغرافية وتنسيقها واضافات وتعليقات محدودة.

فابن خلدون كغيرة من الكتاب في عصرة، اتبع اسلوب الوصف مستمد معظمه من المصادر، يطلق عليه المؤرخون المعاصرون عملاً استعراضياً أو استطرادياً، لا يقارن بالجوانب الاصلية في مقدمة ابن خلدون، فقد وضع قوانيين ودلل عليها، واتبع اسلوب المقارنه والتحليل والاستنتاج والابتكار.

وفي الباب الثاني «في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل وما يعرف في ذلك من الأحوال» يصور ابن خلدون الحركة التاريخية للمجتمعات البشرية على النحو الآتي:

١) المرحلة البدائية الأولى (قبل أن تتنقل).

٢) المجتمعات البدوية، أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه وأن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها، وأن البدو أقرب الى الخير من أهل الحضر، وأن اهل البدو أقرب الى الشجاعة من أهل الحضر، وأن سكن البدو لا يكون الا للقبائل أهل العصبية ... أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه...[٢]

٣) الطور الحضاري.

ويحدثنا ابن خلدون في الباب الثالث عن الدولة واسباب انهيارها فيقول ... أن كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها ... وأن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها يعتمد على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة وأن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها الدولة وأنه اذا استحكمت طبيعة الممالك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والدعة اقبلت الدولة على الهرم ... وأن الدولة لها أعمار طبيعية كالأشخاص.[٣]

فالباب الثالث في مقدمة ابن خلدون تناول الدولة بالدراسة والتحليل، ويكون بذلك من اوائل الجغرافيين الذين كتبوا بالجغرافية السياسية.

فمن أفكاره في الجغرافية السياسية أن لكل دولة مساحة من الأرض لا تزيد عليها، بمعنى ليس لها اطماع في اراضي الدول المجاورة. وأن مساحة الدولة الكبيرة تحتاج الى عدد سكان كبير وتوزيع جغرافي متوازن لتحسن الدولة حماية تلك المساحة.

ومن أفكاره في الجغرافية السياسية أن الدولة ذات القبائل المتعددة تكون عرضة للاخطار والحروب والانقسام، ونضرب مثالين على أفكار ابن خلدون من واقع العالم الحالي (١٩٩٥)، فالمثال الأول نأخذة ممثلة بالأردن، فهي تنعم بالاستقرار السياسي والأمن وانتفاء المشاكل الداخلية، وهذا مرده الى أن السكان في الادرن من أصل واحد، لهم لغة وعادات وامال واهداف مشتركة، وهم متساون

امام القانون. وبالمقابل نجد يوغسلافيا -سابقاً- دولة تضم شعوب واجناس مختلفة مكونة من مقاطعات (الصرب والجبل الاسود وكرواتيا والبوسنة والهرسك) لهم الوان ولغات واديان مختلفة، لذا سرعان ما تفجر بها النزاع المسلح، ورغم محاولات دول العالم الكبرى وقف الصراع المسلح، فلم تفلح حتى الآن (ايار، ١٩٩٥).

ينتقل ابن خلدون في الباب الرابع «في البلدان والأمصار وسائر العمران وما يفرض في ذلك من الأحول». يتحدث فيه عن المدينة كمركز حضاري يقطنها الجماعات البشرية والتي تعود في اصلها الى البداوة، تكون هذه المدن نواة لتشكل دولة، ويتحدث ايضاً عن طبيعة العلاقة بين المدينة والدولة، وعن الظروف التاريخية والقوانيين التي تتحكم في نشأة المدن ونموها ثم تدهورها وانحلالها.

وتتميز كتابات ابن خلدون عن طبيعة الدولة بكثرة تحليلاته وعمق استنتاجاته وغزارتها. فمن اقواله في هذا الصدد (أن الدولة أقدم من المدن والأمصار وانها انما توجد ثانية عن الملك ... وأن المدن العظيمة والهياكل المرتفعة إنما يشيدها الملك ... وأن الهياكل- أو المؤسسات- العظيمة لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة... وأن المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة إلى قدرتها والى من كان قبلها من الدول).

وقد طرق ابن خلدون «جغرافية الأمصار»، وبين مبادىء الخراب في الأمصار، اذ قال: أن تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الرفة لأهلها، ونفاق الأسواق إنما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة ... وأن الأقطار في اختلاف احوالها في الرفة والفقر مثل الأمصار ومن اصناف الناس يحترف بالتجارة وايهم ينبغي لها اجتناب حرفها... وأن خلق التجارة نازلة عن خلق الأشراف والملوك ... ويتحدث ايضاً ابن خلدون عن الصناعة والنقل والاحتكار، فيقول: أن رخص الأسعار مضر بالمحترفين ... وأن الصنائع لا بد لها من المعلم ... وأن الصنائع تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته ... وأن رسوخ الصنائع في الأمصار انما هو برسوخ الحضارة وطول امدها ... وأن الأمصار إذا قاربت الخراب انتقصت فيها الصنائع.

وفي الباب الثالث من مقدمة ابن خلدون يؤكد اكثر من مرة على مفهوم العصبية باعتباره اساساً لقيام الدول، كما يؤكد أن الدعوة الدينية تزيد في قوة الدولة، ويرجع ذلك الى أن الصبغة الدينية، تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية ويضرب مثال على أن لرابطة الدين قوة تزيد من صلابة الدولة ، أن جيوش المسلمين في القادسية واليرموك كانت بضعاً وثلاثين ألفاً في كل معسكر، وجيوش فارس مائة وعشرين الفاً في القادسية، وجيوش هرقل اربعمائة الف ... فكانت النتيجة هزيمة الفرس والروم. وهذا ينطبق ايضاً على دولة لمتونه(٤) ودولة الموحدين(٥) في المغرب، فقد كان بالمغرب كثير من القبائل تفوق قبائل لمتونة والموحدين، الا أن الاجماع الديني ضاعف قوة قبيلة ، لمتونة والموحدين وكان سبب انتصارهم على غيرهم من القبائل ويواصل ابن خلدون تحليلاته حول ضعف الدولة التي تتبنى العصبية وتتخلى عن الدين، فيقول ...اذا تخلت الدولة عن الدين وفسدت، ينتقص امرها..ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين، فيغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها الذين غلبتهم. بمضاعفة الدين لقوتها ولو كانوا اكثر عصبية منها وأشد بداوة ويضرب ابن خلدون على ذلك مثالاً، عندما تبنت دولة الموحدين الدين غلبة قبيلة زناتة (القبيلة البربرية) التي كانت اكثر عدداً من الموحدين وعندما تخلوا عن الصبغة الدينية تغلبت عليهم زناتة من كل جانب وغلبوهم على الأمر وانتزعوه منهم(٦).

ناقش ابن خلدون قوة الدولة ومدى تاثير العصبية والدين على درجة قوتها، فيحيد ابن خلدون العصبية في حالة دخول الدين في الصراع بين الدول، فاذا ما غاب الدين كان للعصبية، كقوة عددية واجتماعية أن تلعب دروها، أما مع الدين فتكون أشبه بأداة، أو عامل مساعد، فابن خلدون في مواقع اخرى من مقدمته يفرق الدين على العصبية ويجعلها صاحبة الفاعلية الأولى في الغلبة السياسية، والفعل التاريخي عموماً، فقد ادرك ابن خلدون دور الدين مبكراً، فادرك أبعاد هذا الدور، ... اذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم، لم يقف لهم شيء لأن الوجهة

واحدة والمطلوب متساوٍ عندهم وهم مستميتون عليه ... وامام الدين ينهار منطق العدد في الصراع التاريخي، وينهار ايضاً منطق الارتباط النسبي بالعصبية والقوة البدائية المجردة التي تنبثق عنه ويحل محلها جميعاً الاستبصار الديني لموقف الانسان بالعالم وعلاقته بالله خالق الكون والحياة والانسان، ليتحول الانسان المؤمن بالله ورسوله إلى كتلة ديناميكية من الحركة المعقدة لا يقف لها شيء ...

ويقف ابن خلدون بقوة مع الجماعة المؤمنة والتي وجهها الايمان الديني والإستبصار ... اذ بمقدورها قلب المقاييس الظاهرية للصراع وتفعل المعجزات.

الا أن ابن خلدون يؤكد في مواقع متعددة في مقدمته «أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم»، ويدعم رأيه بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما بعث الله نبياً الا في منعه من قومه»(٧)

ويضرب ابن خلدون مثالاً آخر من التاريخ على أن الدعوة الدينية دون عصبية لا تتم، فيضرب مثالاً تاريخياً من بغداد بلد ابو جعفر المنصور، اذ يقول انه بعد مقتل الأمين سادت الفوضى والفساد بغداد، فقام ببغداد «خالد الدريوسي» يدعو الناس الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر. تبعه في الدعوة «سهل الأنصاري»، فما كان من«ابراهيم بن المهدي» حاكم بغداد أن جهز له جيشاً، فغلبه واسره عام ٢٠١هـ، وانحل امره سريعاً، ذلك، لأنه لم يستند في دعوته الى عصبية تحميه وتنشد أزره(٨).

ان نظرية ابن خلدون في الحكم ترتكز على تبني الحكم الدين والعصبية ... اذ يقول .. إن العصبية بدون دين لا تحقق شيئاً كبيراً، والدين بدون عصبية لا يتحرك وقتاً طويلاً ... لا بد من اقتران الجانبين ....

ان نظرية ابن خلدون هذه تنسحب في ايامنا هذه على معظم الحكومات العربية التي تتبنى الدين بالاضافة الى الارتكاز على القبلية ... وبعض الدول العربية ترتكز في نهاية القرن العشرين على الدين بالاضافة الى التنظيمات الحزبية.

ويتحدث ابن خلدون في الباب الأول من مقدمته، عن جغرافية العالم، وعن مدى تأثير وفعل العوامل الجغرافية على تكوين الجماعات البشرية ونشاطها الاقتصادي والاجتماعي والعمراني ... ويوضح أن الأديان السماوية الثلاث نبعت من المنطقة المعتدلة وهي (جزيرة العرب ومصر والهلال الخصيب)، فالمنطقة المعتدلة هذه تقع في الاقليم الرابع ففيه اعدل العمران ... والاراضي الواقعة بمحاذاة الاقليم الرابع هي اراضي الاقليم الثالث والخامس وهي أقرب إلى الاعتدال ... فلهذا تعد المباني والملابس والمصنوعات والاقوات والفواكه وجميع منتجات هذه الأقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال. والتكوين الجسمي للسكان اعدل اجساماً وألواناً واخلاقاً ، وانها صاحبة النبوات، وذلك أن الأنبياء انما يختص بها أكمل النوع في خلقهم واخلاقهم وقال تعالى «كنتم خير امة اخرجت للناس»[٩]، وذلك ليتم القبول لما يأتيهم به الأنبياء من عند الله.[١٠]

ويضاف الى رأي ابن خلدون في أن الاقاليم الثلاثة السابقة الذكر تلقت دعوات الانبياء لأن هذه المناطق أكثر اعتدالاً ورشداً ... هو الموقع الجغرافي لهذه المنطقة، فهي تطل على بحار دافئة طيلة أيام السنة (الخليج العربي وبحر العرب والمحيط الهندي والبحر الأحمر والبحر المتوسط والمحيط الاطلسي).

وهي معبر للطرق التجارية بين الهند وأوروبا ... الأمر الذي يسهل انتشار الدين الى جميع انحاء العالم المعمور في تلك العصور.[١١]

وفي الباب الثالث يتحدث ابن خلدون عن «الدولة المستجدة التي تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة لا بالمناجزة» أي بالحروب الطويلة المدى لا بالحرب المباشرة السريعة ... ويضرب على ذلك امثلة متعددة مثل الفتوحات الاسلامية لبلاد فارس والروم والتي يعتبرها غير عادية لأنها انجزت بفترة قياسية أي بسرعة والسبب في ذلك استماتة المسلمين في جهاد عدوّهم استبصاراً بالايمان وما أوقع الله في قلوب الفرس والروم من الخوف والهزيمة.[١٢]

ونشير الى مسألتين في نظرية ابن خلدون وهما: الترف وحتمية السقوط، ففي الباب الثالث من مقدمته (والتي تشتمل على قيام الدول ونموها ثم تدهورها وسقوطها)، يسهب في الدور الذي يلعبه الترف في دمار الدول وتفككها وانحلالها. ويؤكد أن النتائج تكون سلبية للعلاقة المتبادلة بين الترف والالتزام الديني والاخلاقي ... فيقول «... أن الاخلاق الحاصلة من الحضارة والترف هي عين الفساد، لأن الانسان انما هو انسان باقتداره على جلب منافعه ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعي في ذلك، والحضري لا يقدر على مباشرته حاجاته، اما عجزاً لما حصل له من الدعة، أو ترفعاً لما حصل له من المربّي في النعيم والترف، وكلا الامرين ذميم، وذلك لا يقدر على دفع المضار بما فقد من خلق البأس بالترف والمربى في قهر التأديب والتعليم، بهذا الاعتبار كان الذين يتقربون في جند السلطان إلى البداوة والخشونة انفع من الذين يربون على الحضارة وخلقها، وهذا موجود في كل دولة ...»[١٣]

المسألة الثانية التي يؤكد عليها ابن خلدون حتمية سقوط الدول، فهو يقول (إن الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع)، وهذا الرأي يتماشى مع وجهة نظر الجغرافية السياسية لمراحل نمو الدولة، ابتداءً من مرحلة الطفولة ثم الشباب، ثم الشيخوخة والانحلال فالسقوط ... وهذا الرأي يتبناه «ازوالد اشبنفلر» ازاء التاريخ ... ان الدولة، كالأشجار والحيوانات والناس تماماً، مكتوب عليها أن تجتاز رحلة العمر صوب الشيخوخة والذبول ... ما من تجربة في العالم الا وهي تتحرك ضمن هذا الاطار المقفل: الميلاد والموت.

ويرى أبن خلدون أن موت الدول امر طبيعي، والأمور الطبيعية لا تستبدل، وقد يتنبه ممن له يقظة في السياسة، فيرى ما نزل بدولتة من عوارض الهرم ويضن انة ممكن الارتفاع من جديد بالدولة[١٤] ... الا أن الموت امر طبيعي للدولة ... ويعزز ابن خلدون رأيه هذا بايات من القرآن الكريم (فاعتبر ذلك ولا تغفل سر الله تعالى وحكمته في أطراد وجوده على ما قدر فيه (ولكل اجل كتاب).

هل هي رؤية دينية مسألة السقوط المحتوم للدولة؟ الجواب نجده في القرآن الكريم: (وما أهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم. ما تسبق من أمة اجلها وما يستاخرون).[١٥]

(وإن من قرية إلا ونحن مهلكوها قبل يوم القيامة ...)[١٦]، (ولكل امة أجل...)[١٧]، (وتلك الأيام نداولها بين الناس)[١٨].

وتجدر الاشارة الى ان الدين الاسلامي يقر مبدأ حتمية سقوط الدول والحضارات، بما يمكن تسميته (الحتمية التفاؤلية) ... إنه يقرر حتمية الانحلال والسقوط، ولكنه يقرر إمكانية أية أمة أو جماعة أن تعود لكي تنشىء دولة مرة اخرى بالعمل أو تتولى زمام القيادة الحضارية والعقائدية، بمجرد أن تستكمل الشروط اللازمة لذلك، واولها عملية (التغير الداخلي) ... (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)[١٩]. أي التغير الايجابي والتي تمكن الانسان فرداً وجماعة من مواجهة حركة التاريخ[٢٠].

ويسرد لنا المؤرخ توينبي مصير احدى وعشرين حضارة من مجموع ست وعشرين، انتهى بها الأمر إلى التدهور والسقوط.[٢١]

الهوامش

١. عماد الدين خليل، (١٩٨٣) ابن خلدون اسلامياً، المكتب الاسلامي ط١، بيروت، ص١٩-٢٠.

٢. المصدر نفسه، ص٢١.

٣. المصدر نفسه، ص٢٤.

٤. دولة لمتونة هي دولة المرابطين التي قامت على اكتاف قبيلة لمتونة الصنهاجية من بربر المغرب.

٥. دولة الموحدين: قامت على انقاض المرابطين واعتمدت عصبية قبيلة بربرية اخرى هي المصامدة.

٦. مقدمة ابن خلدون، جـ٣، ص٤٦٧-٤٦٨.

٧. المصدر نفسه، ص٤٦٨-٤٧٢

٨. المصدر نفسه، ص٤٧٠-٤٧٤

٩. سورة آل عمران- آية ١١٠.

١٠. مقدمة ابن خلدون، جـ١، ص٤٨٦، ٤٩٠

١١. عماد الدين، مصدر سابق، ص٤٣-٤٤.

١٢. مقدمة ابن خلدون، جـ٢، ص٤١٩-٤٢٠.

١٣. المصدر نفسه، جـ٤، ص٨٨٠.

١٤. المصدر نفسه، جـ٣، ص٦٩٢-٦٩٣.

١٥. سورة الحجر ٤-٥٥.

١٦. سورة الاسراء ٥٨.

١٧. سورة الاعراف ٣٤.

١٨. سورة آل عمران ١٤٠.

١٩. سورة الرعد ١١.

٢٠. عماد الدين خليل، التفسير الاسلامي للتاريخ، دار العلم للملايين، ط١، ١٩٧٥، ص٢٥٩-٢٦١.

٢١. عمادالدين، ابن خلدون اسلامياً، ص٧٢.

الفصل الثالث

الخصائص الرئيسية لجغرافية الارض عند ابي الفداء[1]

مقدمة

مساهمة متواضعة في التعرف على التراث العربي الاسلامي والتعريف فيه حاولنا ان نقدم هذه الدراسة الموجزة في معرفة الخصائص الاساسية لجغرافية الارض عند «ابي الفداء».

ولم تكن دراسة تحقيق بل تعريف فقط بالافكار الجغرافية الواردة في مقدمة كتابه «تقويم البلدان» التي بلغت «٥٧» صفحة من الحجم الكبير.

ولقد وقع الاختيار على كتاب «تقويم البلدان» لانه من المراجع الجغرافية المتأخرة حيث اتم «ابو الفداء» مسودته عام «١٣٢١» واعتمد في تأليفه على المراجع السابقة فهو بذلك يمثل موجزاً تضمن اهم الافكار العلمية العربية في حقل المعرفة الجغرافية. وابو الفداء، وهو الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل بن علي بن محمود بن ايوب صاحب حماه، ولد عام ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م وقد توفي في سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م.

١- شكل الارض:

اعتقد «ابو الفداء» بكروية الارض وبأنها ذات سطح مستدير.

«... اما جملة الارض فكروية الشكل حسبما ثبت في علم الهيئة بعدة ادلة...»

ورغم ان سطح الارض مضرس تشكله الجبال العالية والمنخفضات العميقة فان صفة التضرس لم تمنع الاعتقاد السليم باستدارة هذا السطح فكان معروفاً ان كتل التضاريس لا تشكل الا جزءا يسيرا من كتلة الارض.

«... واما تضاريسها التي تلزمها من جهة الجبال والاغوار فانه لا يخرجها عن اصل الاستدارة ولا نسبة لها محسوسة الى جملة الارض فانه قد تبرهن في علم الهيئة ان جبلا يرتفع نصف فرسخ يكون عند جملة الارض كخمس سبع عرض شعيرة عند كره قطرها ذراع...»

٢- الادلة على كروية الارض:

من بين الادلة التي يذكرها في كروية الارض:

(أ) طلوع الشمس والكواكب وغروبها في شرق الارض قبل غروبها.

(ب) اختلاف خارطة السماء عند التنقل بين شمال الارض وجنوبها.

«... بعدة ادلة منها تقدم طلوع الكواكب وتقدم غروبها للمشرقيين على طلوعها وغروبها للمغربيين يدل على استدارتها شرقا وغربا وارتفاع القطب والكواكب الشمالية وانحطاط الجنوبية للواغلين في الشمال وارتفاع القطب والكواكب الجنوبية وانحطاط الشمالية وانحطاط الجنوبية للواغلين في الجنوب بحسب وغولتها وتركب الاختلافين للسائرين على سمت بين السمتين وغير ذلك دليل على استدارة علة باقي الارض...».

٣- الموقع الفلكي للارض:

تأثر ابو الفداء كغيره من الجغرافيين العرب والمسلمين بالنظرية الاغريقية التي حددت موقع الارض وسط الفلك، ويبدو ان هذه النظرية قد اتفقت مع ما اعتقده العرب من مكانة سماوية «مقدسة» للارض هي بذلك لا بد ان تكون وسط الفلك ومركز الكون، وكان لظاهرة خسوف القمر اثر في قناعتهم بذلك فكانت هذه الظاهرة الدليل الهام لهذا الموقع.

وقد اثبتت الفيزياء ان الارض تحتل مركز الكون بل ان المجموعة الشمسية Solar system التي تعتبر الارض واحدة من كواكبها التسعة تحتل المركز فالشمس هي مركز هذه المجموعة.

اما سبب ظاهرتي الخسوف والكسوف هو وقوع الارض والقمر والشمس على مستوى واحد لك فترة زمنية.

«... ان الارض وسط الفلك لعدة ادلة منها ان انخساف القمر في مقاطرته الحقيقية للشمس يدل على ان الارض في الوسط وانه تحليل سليم لظاهرة الخسوف بعيد عن الخرافة والاسطورة. الا ان الخطأ كان بسبب الافكار المتوارثة عن موقع الارض.

٤- خطوط الطول والعرض:

استفاد «ابو الفداء» من تقسيم الارض الى خطوط طول وخطوط عرض «وهمية» وجاء «تقويمه للبلدان» على اساس تلك الخطوط في تحديد مواقع الاقطار والمدن ومعرفة مساحتها.

ان خلاصة معرفته بهذه الخطوط هي:

(أ) خط الاستواء هو الدائرة الوهمية العظيمة التي تنصف الارض الى نصفين شمالي واخر جنوبي، وتعامد الشمس عليه يتسبب في ظهور فصلي الربيع والخريف.

(ب) خط الطول «الوهمي» الاول هو الخط المار بجزر كناري «جزر الخالدات» في المحيط الاطلسي او الخط المار على ساحل افريقيا الغربي كما يحدده البعض من جغرافي عصره.

(جـ) ادرك بصورة صحيحة ان نصف الارض يحتوي على (١٨٠) خطاً طولياً وقد حسبها على اساس ان نصف الدور «نصف اليوم» يستغرق (١٢) ساعة وكل ساعة تستغرق مرور اشعة الشمس على (١٥) خطاً طولياً.

(د) كان يرى ان الخط الوهمي المار بقطبي الارض والمتعامد على خط الاستواء يقسم الارض الى اربعة اجزاء المسكون، كما هو معروف حينذاك، يتركز في احد الربعيين الشماليين.

(هـ) وبواسطة هذه الخطوط حدد ماهو معمور وما هو غير معمور في الارض. فاعتقد ان المعمور لا يتجاوز (٣) درجات جنوب خط الاستواء ويمتد الى" خط (٥ , ٦٦) درجة شمالية، حيث اشتداد الحرارة في الجهات الاولى حدد النشاط البشري وحيث هبوط الحرارة الشديدة في الثانية هو الاخر حدد النشاط البشري.

ولقد اوضحت الدراسات الجغرافية المعاصرة التي تناولت توزيع السكان على خارطة العالم ان معظم السكان يتركزون في عروض المنطقة المعتدلة وبكثافات عالية وهذا يدل على ملاءمة التصور الجغرافي المذكور.

(و) واستفاد «ابو الفداء» وغيره من خطوط الطول والعرض في تقسيم الارض الى المناطق الخمسة المعروفة، وهي مناطق حرارية يختلف فيها معدل النهار.

وهذه المناطق هي:

١- المنطقتان القطبيتان، الشمالية والجنوبية وهما غير معمورتين بسبب البرودة الشديدة.

٢- المنطقة الحارة، منطقة خط الاستواء وهي غير معمورة بسبب ارتفاع الحرارة الشديدة.

٣- المنطقتان المعتدلتان، شمال وجنوب خط الاستواء، والجنوبية منها مغمورة بالمياه.

ان هذا الوصف لخطوط الطول والعرض والمناطق الحرارية الخمسة الرئيسية كان دقيقاً لدرجة ان الدراسات المعاصرة اكدته واعتمدته في كثير من بحوث جغرافية الارض.وعن خط الاستواء هي الدائرة العظيمة المتوهمة التي تمر بنقطتي الاعتدالين الربيعي والخريفي وتفصل الارض نصفين احدهما شمالي والاخر جنوبي ...» ، ثم يصفة بامتداده عبر قارتي اسيا وافريقيا والمحيط الاطلسي، ويتساوي الليل والنهار عليه طوال العام وتعامد الشمس عليه مرتان في العام وبأنه سمي خط الاستواء لتساوي الليل والنهار عليه ويذكر ان سقوط اشعة الشمس يتباين خلال العام بين التعامد عليه وشماله وجنوبه.

«... خط الاستواء وهو يمر من بحر الصين الى بحر الهند الى الزنج الى براري سودان المغرب وينهي الى البحر المحيط في المغرب فمن سكن في احد الاماكن التي على خط الاستواء لم يختلف عليه الليل والنهار واستويا عليه ابدا ... واجتازت الشمس على سمت رأسه في السنة مرتين عند كون الشمس في رأسي الحمل والميزان وبعضهم يرى انه اعدل المواضع وبعضهم يرى انه حار وانه سمي خط الاستواء لتساوي الليل والنهار فيه...».

وعن خطوط الطول «... واذا توهمت عظيمة اخرى تمر بقطبي هذه الدائرة انقسمت الارض بهما ارباعاً حد الشماليين هو الربع المسكون وثلاثة الارباع غير معلومة الاحوال والاكثر على انها مغمورة بالماء. وانما حكم بأن المعمور ربع لانه لم يوجد ارصاد الحوادث الفلكية كالخسوفات تقدم ساعات الواغلين في المشرق لها اربع ساعات الواغلين في المغرب زائداً على اثنتي عشر ساعة خمس عشرة درجة وخمس عشرة في اثنتي عشرة بماية ثمانين وهو نصف الدور ...».

وللاستفادة من خطوط الطول والعرض في تحديد جغرافية الاستيطان، «... وانما قيل ان المسكون هو الشمالي لانه لم يوجد اظلال انصاف نهار الاعتدالين

في شيء من المساكن جنوبياً الا في قليل من مساكن على اطراف الزنج والحبشة لكن لا يزيد عرضها على ثلاث درجات وفي جانب الشمال ايضاً لا يسكن فيما جاوز عرضه تمام الميل الكلي لشدة البرودة والمراد بتمام الميل الكلي عرض ست وستين درجة ونصف تقريباً ...».

وعن خطوط الطول والخط الاول فيها يذكر «... والجمهور جعلوا مبدأ الاطوال من جانب المغرب ليكون ازدياد عدد الاطوال في جهة توالي البروج ومبدأ العرض خط الاستواء لانه بالطبع متعين. وقد ذكر ان بدأة العمارة في المغرب كانت في جزائر تسمى بالخالدات وهي الان غير معمورة فجعل بعضهم الجزائر المذكورة مبدأ الطول وقوم اخرون جعلوا ساحل البحر الغربي مبدأ وبينهما عشر درجات من دور معدل النهار...».

وعن المناطق الحرارية الخمسة «... ان الارض مقسومة بخمسة اقسام يفصلها دوائر متوازية وموازية لمعدل النهار فمن ذلك دائرتان تفصلان الخراب من العالم بسبب القرب من القطبين لشدة البرودة ... خط الاستواء واكثره خراب من جهة الحر اما السطحان اللذان عن جانبيه احدهما من شماليه والاخر من جنوبيه فهما معتدلان لكن الجنوبي منهما مغمور بالماء على المشهور وليتصور من هذا الشكل صورته ...» .

الجنوب

خراب لشدة البرد

الجنوب المعتدل وهو المغمور بالماء

السطح المستوي عليه خط الاستواء

الشمالي المعتدل وفيه الاقاليم

خراب لشدة البرد

الشمال

٥- توزيع اليابس والماء:

الماء عند «ابي الفداء» احد العناصر الطبيعية المكونة للوجود الطبيعي، وهو يحيط بالارض من جميع جهاتها ويغطي ($\frac{٣}{٤}$) سطح الارض تقريباً، واليابس لا يشكل سوى ($\frac{١}{٤}$) فقط، وان البحر المحيط- المحيط الاطلسي- هو الذي يحيط باليابس من كافة الجهات الاربعة يبدو وكأنه جزيرة وسط المياه، «... ثم الماء وموضعه الطبيعي ان يكون شاملاً للأرض شمولاً للهواء، ثم الارض وموضعها الطبيعي أن تكون وسط الكل وان يحيط بها الماء من جميع جهاتها وانما العناية الالهية كشفت بعض الارض وجعلته بارزاً عن البحر ليكون مكاناً للحيوان البري والنبات، قالوا والقدر المكشوف من الارض بالتقريب ربعها اما ثلاثة ارباع الارض الباقية بالتقريب فمغمور بالبحار... قالوا والبحار العظيمة المشهورة خمسة البحر المحيط وبحر الصين بحر الروم وبحر نيطش بحر الخزر... »

٦- جغرافية البحار والمحيطات:

تتلخص جغرافية البحار المحيطات عند «ابي الفداء» بما يلي:

(أ) المحيط الاطلسي ويسميه البحر المحيط، وهو البحر العظيم الذي يحيط باليابس من كافة جهاته فيبدو في وسطه وكأنه جزيرة، وعنه تتفرع بحور العالم الاخرى.

(ب) من البحر المحيط تتفرع بحار صغيرة بأخذ اسماء جهات اليابس الواقعة عليه.

(جـ) يسمى البحر المحيط بالجهات الشرقية من العالم بالبحر الشرقي.

(د) يصف «ابو الفداء» كافة البحار وصفاً منقولا عن المصادر واكثر البحار وصفاً هو البحر المحيط وبحر الروم «البحر المتوسط» وبحار الوطن العربي بسبب قربها ودراستها وسهولة التعرف عليها.

(هـ) يقدم وصفاً جغرافياً للاشكال الهيدرولوجية، للبحار الواسعة والبحار الصغيرة واجزائها من الخلجان، ووصفاً لظاهر المد والجزر فيها.

(و) يعرف البحر احياناً بجوانب الارض التي قد احاط بها.

(ز) «... ولاصحاب جغرافية اصطلاح في تعريف البحر فيقولون يمتد كالقوارة وكالشابورة وكالطيلسان .. والخور كل خليج يمتد من البحر الى بعض النواحي والمجرى ما يقطعه المركب في يوم وليلة بالريح الطيب... »

عن البحر المحيط «... انما سمي محيطاً لاحاطته بجميع القدر المكشوف من الارض ولهذا كان يسميه ارسطو الاكليكي لانه حول الارض كالاكليل على الرأس ولنبتدي فنذكره من الجانب الغربي ثم نذكر احاطته من الجهة الجنوبية ثم من الجهة الشرقية ثم الشمالية ثم الغربية من حيث ابتدأنا فنقول ان جانب المحيط الغربي الذي على ساحله بلاد الغرب يسمى اوقيانوس، وفيه الجزائر الخالدات وهي واغلة فيه عن ساحله عشر درجات، والبحر المحيط المذكور يأخذ في الامتداد من سواحل بلاد المغرب الاقصى الى جهة الجنوب حتى يتجاوز صحراء لمتونه، وهي براري للبربر بين طرف بلاد المغرب وبين اطراف بلاد السودان، ثم يمتد جنوباً على اراضي خراب غير مسكونه ولا مسلوكه حتى يتجاوز خط الاستواء في الجنوب عنه ثم يعطف الي جهة الشرق وراء جبال القمر التي منها منابع نيل مصر، فيصير البحر المذكور جنوبياً عن الارض ثم يمتد شرقاً على أراضي خراب وراء بلاد الزنج ثم يمتد شرقاً وشمالاً حتى يتصل ببحر الصين والهند وثم يمتد شمالا حتى يسامت نهاية الارض في شرقي الصين الى جهة الشمال ثم يمتد شمالا على شرقي الصين حتى يتجاوز بلاد الصين ويسامت سد ياجوج وماجوج ثم ينعطف ويستدير على اراضي غير معلومة الاحوال، ويمتد مغرباً يصير في جهة الشمال عن الارض ويسامت بلاد الروس ويتجاوزها ويعطف مغربا وجنوبا ويستدير على الارض ويصير من جهة المغرب ويمتد على سواحل امم مختلفة من الكفار حتى يسامت بلاد رومية بين الاندلس حتى يتجاوزها الى بلاد الاندلس جنوبا حتى يتجاوزها الاندلس ويسامت سبته من بر العدوه من حيث ابتدأنا ... ».

وعن البحور التي تخرج عن البحر المحيط «... ويسمى هذا البحر باسماء البلاد التي يسامتها فطرفه الشرقي يسمي بحر الصين لان بلاد الصين على ساحلة ثم القطعة الغربية عن بحر الصين يسمى الهند لمسامتتها بلاد الهند...».

«... ذكر بحر الصين اما تفاصيل احواله وتحديده فانه مجهول لنا ولم نقف فيه على تفصيل محقق...».

عن المحيط الهندي «... ذكر البحر الاخضر هو بحر الهند اما شرقية فبحر الصين وشماليه بلاد الهند وغربية بلاد اليمن واما جنوبية فغير معلوم لنا فانه بحر ممتد في الجنوب حتى يتجاوز خط الاستواء وفيه جزيرة سرنديب...» .

وجزيرة سرنديب هي جزيرة سيلان، وبعد ذلك يتناول البحر العربي والخليج العربي والسواحل والجزر والامصار الواقعة عليهما .

ويصف «باب المندب» بين البحرين العربي والاحمر «... ثم يمتد على سواحل الحبشة جنوبا ويصل الى رأس جبل المندب وهي نهاية بحر القلزم الجنوبية عند فم بحر القلزم من بحر الهند ويتقارب جبل المندب وبر عدن ويبقى البحر بينهما ضيقاً حتى يرى الرجل صاحبه من البر الاخر، هذا المضيق يسمى باب المندب...» .

ويصف بحر اوقيانوس والمحيط الاطلسي- او الجزء القريب على اوروبا والذي تطل عليه سواحلها، وصفا تفصيليا، ويسميه احيانا بحر الظلمات «... وهو قطعة من البحر المحيط الغربي...» .

ويصف البحر المتوسط وبحر الروم ، وصفا دقيقاً لجزره وسواحله وخلجانه «... وهو البحر الخارج من اوقايانوس في جهة الشرق وابتداؤه من طنجة وسبته وغيرهما من بر العدوة وبين الاندلس يسمى هناك بحر الزقاق وهو ضيق هناك...».

وعن البحر الاسود «... ويعرف بحر نيطش في زماننا بحر القرم وبالبحر الاسود وماؤه على القسطنطينية ويتضايق حتى يصب في بحر الروم...».

ويحدد موقع الجزر البريطانية في بحر الشمال «... بحر برديل هو بحر يخرج من البحر المحيط الغربي في شمال الاندلس ... وببحر برديل جزر برطانية...».

وعن بحر الخزر

«... هذا بحر ملح لا يتصل بالبحر المحيط ولا بغيره من البحور بل هو بحر منفرد قريب من الاستدارة...» .

٧- جغرافية البحيرات:

اهتم «ابو الفدا» في البحيرات من خلال الجوانب التالية:

(أ) تحديد مفهوم البحيرة فعنده «... البحيرة والبطيحة بمعنى واحد وهي المياه المجتمعة التي هي في القدر دون البحار...».

(ب) عرف ان البحيرات في العالم كثيرة وماهو معروف منها ومدروس هو البعض منها «... والبحيرات من الكثرة على وجه لا ينحصر ولم ينقل في الكتب الا بعضها ...» .

(جـ) قدم وصفاً عن البحيرات المعروفة فحدد موقعها والانهار الخارجية عنها والتي تصب فيها ووصف سواحلها والمدن الواقعة عليها.. من البحيرات التي ذكرها«... ومنها البطيحتان اللتان هما جنوبي خط الاستواء... وهي شرقي البطيحة الغربية...» .

وبحيرة فكتوريا يسميها «كوري» فينقل عن ابي سعيد «... وهي بحيرة على خط الاستواء ويخرج منها نيل مصر شمالا ونيل مقدشو شرقا ونيل غانه مغربا ...» .

ويذكر البحيرات في السودان والمغرب ومصر فيصف بحيرة الفيوم «... وهي بحيرة بقرب الفيوم يصب فيها فضلات ماء الفيوم ولاتخرج منها وفيها سمك كثير وطرفاء واجام .. وهي حلوه...» .

وعن بحيرتي دمياط وتنيس «... هما بحيرتان متصلة احداهما بالاخرى ومتصلتان بالبحر المالح فبحيرة تنيس هي البحيرة الشرقية منها وبحيرة دمياط هي الغربية ويصب فيهما بحر اشمون وهو النيل الشرقي ... وبحيرة تنيس ودمياط متسعة الى الغاية وهي متصلة بالبحر ويعذب ماؤها في زيادة النيل ويملح اذا نقص النيل وهي قليلة العمق يسار في اكثرها بالمرادي...».

ويصف البحيرات في بلاد الشام، بحيرات زغر وطبرية وبانياس والبقاع ودمشق وانطاكية وغيرها. وعن طبرية «... وهي في اول الغور تدخل اليها الشريعة المنصبة من بحيرة بانياس الى بحيرة طبرية ... وهي قرعاء وليس فيها شعب ...».

وعن البقاع «... وهي مستنقعات واهياش واقصاب في جهة الغرب من بعلبك...».

وعن بحيرة دمشق «... في غرب غوطة دمشق ... يصب اليها فضلة نهر بردا وغيره ...».

وبعد ذلك يتناول البحيرات المعرفة في تركيا وايران اما عن العراق فيصف الاهوار في وسطه وجنوبه «... منها بطائح البصرة ... ومنها بطائح واسط... والكوفة بطائح تصير من فضلات ماء الفرات واما بطائح واسط فهي من مياه دجلة ... وتسمى البطيحة والبحيرة عندهم الهور ثم عند انتهاء البطائح المذكورة يخرج نهر دجلة وتسمى بعد خروجها من البطائح دجلة العوراء ثم بعد ذلك يتفرع منها انهار البصرة ...».

٨- جغرافية الانهار:

تناولت جغرافية الانهار عند «ابي الفداء» الموضوعات التالية:

(أ) الاهتمام بوصف الانهار الكبيرة والمشهورة وصفا تفصيلياً من المنابع وحتى المصب مع ذكر المدن المعروفة الواقعة عليها وذكر اطوالها احياناً.

(ب) ذكر انواع الصخور والمعادن الموجودة في سواحلها والشلالات والجنادل

فيها وانواع النباتات والحيوانات التي تعيش في مياهها.

(جـ) ذكر الروافد والفروع المتفرعة عن الانهار سيما الكبيرة والمعروفة منها.

(د) يحدد مواعيد الفيضان والصيهود لكل منها.

(هـ) يذكر اهميتها الاقتصادية في معرفة تأثيرها على الانهار سواء اكانت سيحا او بالواسطة «الدواليب».

(ز) ذكر بعض الظواهر الهيدرولوجية، ان منابع الانهار تتغذى من الامطار والثلوج، وان طبيعة المجرى الصخرية ذات علاقة في خصائص مياه النهر في حملها ذرات الرمال او الغرين او جريانها صافية. واثر سرعة الجريان وكميات المياه الجارية في عذوبتها.

وعن كثرة اعداد الانهار «... انها من الكثرة على حد لايبلغ الانسان الاحاطة بجميعها وانما المذكور بعضها...».

وعن النيل «... وهو النهر العظيم المشهور الذي ليس له نظير في الوجود عن سائر انهار الارض، احداها انه اطول انهار الارض من مبتداه الى منتهاه وذلك يستلزم لطافته بسبب كثرة الجريان، والثانية انه يجري في رمال وصخور فيسلم عن الارض الخنزة والحماه والوحل الذي لايكاد انه يخلو منه نهر. الثالثة ان الحجر فيه لايخضر كما يخضر في غيره وهو يزيد في ايام نقص الانهار وزيادته انما هي من الامطار التي تقع في تلك البلاد ومبتداه وأوله الخراب الذي هو جنوب خط الاستواء، ونسب بطليموس انه ينحدر من جبال القمر من عشر مسيلات منه ... وتصب هذه المسيلات العشرة في بطيحتين كل خمسة انهار في بطيحة. ثم يخرج من كل واحد من البطيحتين اربعة انهار وينصب منها نهران في الانهار الاخرى فتصير سته . انهار وتسيرالانهار الستة الى جهة الشمال حتى تصب في بحيرة مدورة عند خط الاستواء وهي بحيرة كورا ... ويخرج منها نيل مصر شمالا ويمر على بلاد السودان. وعن المغرب يذكر عدة انهار وجداول ومنها: نهر السويس الاقصى ونهر الملوية وكلاهما يصبان في البحر المتوسط– بحر الروم–.

ويتناول انهار الاندلس بشيء من التفصيل فيذكر عن نهر اشبيليه «... قال ابن سعيد وهو في قدر دجلة وهو اعظم نهر بالاندلس وتسميه اهل الاندلس النهر الاعظم ... ويصب اليه عدة انهار منها نهر شنيل الذي يمر على غرناطة ونهر سوس الذي عليه مدينة استجه...» .

ويتناول الانهار في تركيا وايران والهند ويذكر عن انهار بلاد الشام ونهر الاردن بتفصيل «... وهو نهر الغور ويسمى الشريعة ايضاً ...» .

ونهر حماة ويسمى نهر الارنط ونهار العاصي وسبب هذه التسمية «... لان غالب الانهر تسقي الاراضي الا بنواعير تنتزع منه الماء ...».

وعن العراق يصف نهري دجلة والفرات بالتفصيل من منابعهما وحتى المصب عند البطائح «الاهوار».

الفرات «... اوله من شمال مدينة ارزن الروم وشرقيها، وارزن في آخر حد بلاد الروم من جهة الشرق ... وتسيرالى عانه ... ثم تسير الى هيت ... ثم تسير الى الكوفة ... ثم تسير مشرقاً وتصب في البطائح ... وعن سليمان بن مهنا ان بجانبي الفرات سعة الى قائم عنقا، وفي قائم عنقا تدخل في واد الى عانه الى الحديثة الى هيت الى الانبار، ومن هيت تخرج الى فضاء العراق والسهول... ويصب الفرات ويخرج منها انهر كثيرة ... ويصب في الفرات ايضاً نهر البليخ، واول البليخ من ارض حران من عين يقال لها الذهبانية ... ويصب في الفرات ايضاً نهر الخابور ... ويحمل من الفرات عدة انهار فمنها نهر عيسى ... واخبر سليمان بن مهنا ان مخرج نهر عيسى تحت الانبار بالقرب منها عند ضيعة يقال لها الفلوجة. قال وفي ايام نقص الفرات ينقطع جريان نهر عيسى وتسقى البساتين التي عليه بالدواليب من مستنقعات تبقى في النهر ... فاذا وصل الى المحمول تفرع منه عدة انهر ... ومنها نهر صرصر ومخرجه من الفرات تحت مخرج نهر عيسي ويسير في سواد العراق ... ومنها نهر الملك ومخرجه تحت نهر صرصر ... ومنها نهر كوشي ومخرجه من تحت نهر الملك وكذلك يسقي سواد العراق ... واذا جاوزت الفرات نهر كوثي بستة فراسخ انقسمت قسمين ومر احدهما وهو الجنوبي الى الكوفة ويتجاوزها ويصب في البطائح ويمر الاخر وهو اعظمها بازاء

قصر ابن هبيره ويسير جنوباً الى مدينة بابل القديمة وينفرع من نهر سوراء المذكور بعد ان يتجاوز بابل عدة انهار...» .

وعن نهر دجلة «... دجلة بكسر الدال المهملة وسكون الجيم وقال وهي نهر عظيم مشهور مخرجه من بلاد الروم ثم يمر على امد وحصن كيفا وجزيرة ابن عمر والموصل وتكريت وبغداد وواسط والبصرة ... ويصب في دجلة عدة انهار فمنها نهر ارزن ونهر الثرثار... ويصب ايضاً الى دجلة الزاب الاعلى ومخرجه من بين الموصل واربل ... في دجلة الزاب الاصغر ويمر بين اربل ودقواقا...» .

ويذكر بعد ذلك النهروان والدجيلة وانهارَ البصرة وهي كثيرة العدد المعقل والابله والامير والقندل.

٩- جغرافية التضاريس:

وصف تضاريس العالم اقتصر عند «ابي الفداء» كما اقتصر عن غيره من الجغرافيين العرب على وصف الجبال، وعند دراسة ما تناوله «ابو الفداء» عن جبال العالم نستخلص اهتماماته فيها بمايلي:

١- تحديد مواقع الجبال ومواضعها الفلكية احيانا بالاطوال «الفراسخ» او بواسطة خطوط الطول ودوائر والعرض.

٢- ذكر ما فيها من انواع الصخور والمعادن.

٣- وصف الغابات الموجودة عليها.

٤- وصف حالاتها من حيث الرطوبة، وسقوط المطر والثلج او الجفاف.

٥- وصف حالاتها كحدود مانعة وحواجز فاصلة واذا ما توفرت فيها الممرات والوديان.

٦- وصف الخصائص البشرية فيها، فيما اذا كانت الجبال واطرافها معمورة ام غير معمورة.

ومن الجبال التي تناولها واهتم بها كثيرا «جبل القمر»، «جبل القمر قد اختلف في ضبطه فبعضهم يجعله مضافا الى القمر الذي في السماء ويفتح القاف والميم وقد رأيته في كتاب ياقوت التي سماه المشترك وضعا المختلف صقعا مضبوطا بضم القاف وسكون الميم، وكذلك رأيته في كتاب ابن سعيد المغربي يضم القاف وسكون الميم، وقد ذكره ابن مطرف في الترتيب ولم يضبطه بل قال هو مشتق من قمر الطرف وهو جبل في الخراب الجنوبي وعرضه احدى عشرة درجة جنوبي من خط الاستواء ومنه منابع نيل مصر من عشر مسيكلات تنحدر منه ولم يثبت وصول احد اليه بل شاهدوه من بعد، وهو ابيض من القاع الذي عليه وهو عندي مستبعد فان عرض احدى عشرة درجة في غاية الحرارة ويعتبر من عرض احدى عشرة شمالي وهو عرض عدن من اليمن فان وقوع الثلوج في مثل عرض عدن لم يسمع به في زمن من الازمان والجانب الجنوبي مثل الشمالي بل اشد حرارة لحضيض الشمس...».

ويصف سلاسل جبال المغرب «الاطلس الشمالي والاطلس الجنوبي» فيذكر عن جبل درن «... وهو جبل عظيم مشهور ببلاد المغرب قال ابن سعيد هو جبل شاهق لايزال عليه الثلج...».

وذكر جبل «كزوله» وجبل غماره الذي يصفه «... وهو جبل ببر العدوة الزقاق اذا جاوز سبته مشرقا اخذ جنوبا الى جبل غماره...».

ثم جبل «مديونه» وحدد موقعه «... وهو جبل مشهور ببر العدوة في شرقي مدينة فاس...» ثم جبل يسر ونشريس وجبل طارق «... ويسمى جبل الفتح لان المسلمين التجوا اليه لما عبروا الى الاندلس وهو جبل بجزيرة الاندلس في جانبها الجنوبي ومنه فتحوا الاندلس وهذا الجبل يظهر في البحر من سبته وتقع الجزيرة بالقرب من هذا الجبل وهي قبالة سبته ...»جبل «الشارة» ويتناول جبل «البرت» بشيء من التفصيل «... الفاصل بين جزيرة الاندلس والارض الكبيرة لان الاندلس من جميع جهاتها قد أحاطتها البحار ولم يبق لها لا هذا المدخل... وليس الى الاندلس طريق في البر الا من هذا الجبل ولم يكن يسلك وانما الاوائل فتحوا فيه ابوابا بالحديد والنار والخل...».

ويصف جبال مصر، جبل الجنادل وجبل الازورد ويقول فيه «... وهو جبل في الجنوب عن جبل جالوت قيل ان فيه معدن اللازورد وامتنع استخراجه لانقطاع العمارة هناك ...»وجبل جالوت وجبل الطيلمون.

وفي شبه الجزيرة العربية يذكر جبلا طي «... وهما أجا وسلمي، وهذا الجبلان مشهوران وهما في شرقي مدينة الرسول ويمر بهما حجاج الكوفة...»ثم جبل العارض.

ويتحدث كثيرا عن جبال بلاد الشام سيما جبل «لبنان» وجبل «الطور» وجبل «الجودي»، وعن جبال العراق يذكر جبل «بيستون» «... وهو جبل في بلاد الجبل المعروفة بعراق العجم. قال ابن حوقل هو جبل ممتنع لا يرتقي الى ذروته... وعلى ظهره غار وفي الغار عين ماء...».

بعد ذلك ينتقل الى بلاد ايران والشرق ليصف بها بعض جبالها المشهورة مثل جبل «طبرسان» «... وهو في الجنوب والشرق عن بحر الخزر ...» «... وهو جبل اردبيل من اذربيجان لا يرتقي الى اعلاه لارتفاعه ... ولا يزال عليه الثلوج دائما ودونه جبل صغير يسمى «الحويرث» ويخرج من الحويرث مياههم ومحتطبهم ومتصديهم فيه ويقال انه لا يعرف جبل اعلى منه بهذه المدن ...».

١٠- المأهول وغير المأهول:

تأكد «لابي الفداء» ان العالم غير مأهول باجمعه وأن الجزء الذي يعيش فوقه البشر قليل المساحة ويحدد معظم الجزء المأهول بين خطي عرض (١٠-٥٠) شمال خط الاستواء اي ضمن المنطقة المعتدلة وشبه المعتدلة مناخيا.

وقد قسم، كغيره من الجغرافيين، هذا القسم الى سبعة اقاليم، والاقليم عنده هو والجزء الذي تتشابه فيه بعض خصائص سطح الارض وهذا تحديد جغرافي دقيق ، وتمتد هذه الاقاليم بصورة متوازية يختلف الاقليم عما يليه بنهار اطول بنصف ساعة.

«... ان معظم العمارة يقع بين ما يجاوز عشر درجات في العرض الى حدود الخمسين فقسمها اهل الصناعة بالاقاليم السبعة ليكون كل اقليم تحت مدار تتشابه به أحوال البقاع التي فيه وكل اقليم منها يمتد ما بين الخافقين طول ويكون عرضه قدرا قليلا وهو ما يوجب تفاضل نصف ساعة في مقادير النهار الاطول...».

وعن بداية ونهاية كل اقليم يذكر الاختلاف الذي وقع فيه الجغرافيون فالبعض منهم رتب الاقليم بالشكل التالي: مبدأ الاقليم الاول خط الاستواء وآخر الاقليم السابع منتهى العمارة، وهو يرجح التحديد التالي ويعتبره ما أتفق عليه المحققون وهو: بداية الاقليم الاول خط عرض (٣/١ ١٢°) وآخر الاقليم السابع خط العرض (٣/١ ٥٠°) وعلى هذا التحديد يصف كثيرا من تفاصيل هذه الاقاليم الفلكية والمساحية ويؤكد بعد ذلك ان النهار يبلغ (٢٤) ساعة بعد خط عرض (٦٦, ٥).

«... وقد اختلفوا ايضا في ترتيب الاقاليم بحسب العرض فقوم جعلوا مبدأ الاقليم الاول خط الاستواء وآخر السابع منتهى العمارة.

ويتناول بعد ذلك كل اقليم فيحدد موقعه بخطوط الطول والعرض ويحسب مساحته وهو بذلك يعتمد على ما توصل اليه «ابو الريحان البيروني» الاقليم الاول:

طوله: ٣٢٥٢ فرسخا، عرضه: ١٤٧ فرسخا، الاقليم الثاني: طوله: ٣١٠٤ فرسخا، عرضه: ١٣٥ فرسخا، الاقليم الثالث: طوله: ٢٩٢٤، عرضه: ٢/ ١١٥، الاقليم الرابع: طوله: ٢٧٢٥، عرضه: ١/ ٦ ٩٩، الاقليم الخامس: طوله: ٢٥٥٧، عرضه ١/ ٢ ٨٢، الاقليم السادس: طوله: ١/ ٢ ٢٣٩٠، عرضه: ٧٢، الاقليم السابع: طوله: ٢٢٥٤، عرضه: ٦٢.

١١- الجغرافية الاقليمية:

بعد مقدمته التي اشتملت وصفا لاهم خصائص الارض يتناول «ابو الفدا» العالم المعروف حينذاك بدراسة وصفية فيدرس كل دولة حيث يحدد مواضع أهم المدن الواقعة فيها فيحدده من حيث موقعها من الاقليم الحقيقي والاقليم العرفي والفرق بينهما عنده، «... والمراد بالاقليم الحقيقي احد الاقاليم السبعة .. وقد يكون الاقليم العرفي بعضا من الاقليم الحقيقي وقد يكون بعضا من اقليمين ...» «... وابتدأ بجزيرة العرب لكون بيت الله الحرام وقبر نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام فيها ...».

الهوامش

١- ابو الفدا، عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر، تقويم البلدان، «اعتنى بتصحيحه وطبعه، رنيود وماك كوكين ديلان»- دار الطباعة السلطانية، باريس، (١٨٤٠)، ص٣-٦٨.

الفصل الرابع

الفكر الجغرافي عند الرازي

مولده ونشاته:

هو أحمد بن محمد بن موسى بن بشير بن حماد بن لقيط الرازي الكناني الملقب بأبي بكر، ولد في ١٠ ذي الحجة سنة ٢٧٤هـ، وتوفي في شهر رجب من عام ٣٤٤ هـ[١] وقد تأثر بوالده بالتاليف والترجمة[٢]، نشأ الرازي في الاندلس في بيئة علمية، حيث كانت مدينة قرطبة في عهده مركزاً من مراكز القيادة والاشعاع الحضاري. وقد اهتم بالتاريخ والجغرافية، وله عدة مؤلفات في هذا المجال، تناول فيها مختلف فروع الجغرافية الحديثة. فمن كتبه:[٣]

١) كتاب يصف مدينة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان فيها. ويعد مرجعاً يعتمد عليه في الدراسات.

٢) كتاب مسالك الأندلس ومراسيها، افتتح كتابه هذا بمقدمة جغرافية.[٤]

٣) كتاب أخبار ملوك الأندلس، وقد اوضح فيه أن الجغرافية علم متمم للتاريخ.

وقد تأثر بكتابات الرازي التاريخية والجغرافية عدد من العلماء منهم:

١) بيتر هابلين، فقد أورد في كتابه «ميكروكوزميس» (الكون الصغير) عام ١٦٢١م عبارة تقول (التاريخ بغير الجغرافية كالجنة الميتة ...).[٥]

٢) ميشيلية، ذكر في كتابه تاريخ فرنسا عام ١٨٣٣م. (أن التاريخ تطور جغرافي ...)

٣) فيدال دي لابلاش Vidal de Lablache ، اورد في كتابه جغرافية فرنسا عام ١٩١١م مقدمة جغرافية عن تاريخ فرنسا، تشبهاً بكتابات الرازي.

٤) جورج آدم سميث ١٨٩٤م، فقد كتب في «الجغرافية التاريخية للأرض المقدسة».

٥) سمبل، وهو امريكي كتب في «التاريخ الأمريكي وملابساته الجغرافية».

٦) برجهام ١٩٠٣ ، فقد أوضح المؤشرات الجغرافية في التاريخ الامريكي.[٦]

إن العلاقة الوثيقة بين التاريخ والجغرافية كان أول من اوضحها الرازي منذ أكثر من ١٠٠٠ عام، والعلماء المشار إليهم اعلاه، ساروا على منهجه في الفكر الجغرافي.

ويعد الرازي أول العلماء الذين كتبوا في الجغرافية التاريخية والجغرافية الاقليمية في الأندلس، كان يعرف في اوروبا Elmte Elrasis.[٧]

ومن أهم ما كتب الرازي كتابه «مسالك الأندلس ومراسيها» في الجغرافية، وهو المقدمة الجغرافية لتاريخ الرازي الكبير.

ومن كتابات الرازي نجد أنه يؤمن بان الجغرافية علم متمم للتاريخ، ففي كتاباته عن الاندلس بدأ بتحديد موقع شبه الجزيرة من الاقاليم، ووضعها في الاقليم الرابع، وقال أنها على هيئة لا «مركنة» ذات ثلاثة أركان أي أنها مثلثة الشكل، وهذا الوصف يدل على أنه متأثر بكتابات جهروشيش Hispemiatrigona. ان تحديد المكان يطلق عليه الموقع الجغرافي.

وبعد أن حدد الموقع الجغرافي لاسبانيا، اوضح مناخها بعبارة مقتضبة « ... والأندلس أندلسان ... »[٨]، أي الى اقليمين مناخيين متباينين، ثم تناول الرياح واتجاهاتها ومواقعها وأمطارها[٩]، فهو بذلك عالم في الجغرافية المناخية.

وقد لخص الرازي أحوال الاندلس (اسبانيا حالياً)، المناخية والطبيعية بقوله: ... بلد الاندلس هو آخر الاقليم الرابع الى المغرب، وهو عند الحكماء بلد كريم

البقعة، طيب التربة، خصب الجنان، منحبس الأنهار الغزار، والعيون العذاب، قليل الهوام ذوات السموم، معتدل الهواء والجو والنسيم، ربيعه وخريفه ومشتاه ومصيفه على قدر من الاعتدال، تتصل فواكهه أكثر الأزمنة ... أما الساحل منه ونواحيه فيبادر بباكورة ... وأما الثغر وجهاته والجبال المخصوصة ببرد الهواء فيتأخر بالكثير من ثمره.(١٠)....

فمن تحليل النص المذكور للرازي عن الاندلس، نجد أنه ركز على وصف الجغرافية الطبيعية للاندلس، فقد قدم شرح وافي عن أنهارها وجريانها وغزارة مياهها «فيما يعرف حالياً بالتصريف المائي للأنهار». وابرز الجوانب الاقتصادية لأنهار الاندلس التي تصب في المحيط العربي (المحيط الاطلسي)، والاخرى التي تجري شرقاً، فأبرز قيمتها في الحياة الزراعية، ومما كتبه عن النهر الوادي الكبير ... من الأنهار المشهورة ببلاد الأندلس فنهر قرطبة ويعرف بنهر بيطي Bactis، مخرجه من ناحية ريمة Remon, Reymon، ومن منبعه الى موقعه في البحر بعد مدينة اشبيلية بثلاثمائة ميل وعشرة أميال ويقع فيه سنجيل (شنيل)، وهو ينبعث من الثلج من جبال البيرة وعليه مدينة أستجه.

ومن اهتمامات الرازي دراسته ووصفه الدقيق للحياة السياسية والبشرية للمدن الأندلسية تاريخياً وجغرافيةً بما يعرف بوقتنا الحاضر بجغرافية المدن، فقد قسم الأندلس الى كور ومدن، والمدينة الأندلسية تمثل قسماً ادارياً، والكورة لها زمام واسع تقع فيها مدن وقرى وحقول واسعة ويمكن أن يكون أشبه بالاقليم، والمدينة هي القسم الاداري الواقع على الحدود أو المحيط بالعاصمة، وهو ما يعرف بوقتنا الحاضر المحافظة أو اللواء.

وذكر الرازي كل ما يتعلق بجغرافية المدن عن المدينة والكورة، فبين مميزاتها الخاصة من حيث اتصالها بالمياه والسهول والانهار، ووظائفها، وبين أهميتها العسكرية والمسافات بينها، فقد ذكر « ... ومن تطيلة الى سرقسطة ٣٠ ميلاً، ومن قلعة أيوب الى تطيلة ٢٥ ميلاً، ومن مكرة الى تطيلة ١٢ ميلاً، ومن تاجرة الى تطيلة ٥٠ ميلاً، ومن بقيرة الى تطيلة ٣٣ ميلاً، ومن أرنيط الى سرقسطة ٨٠ ميلاً، ومن جرلونة الى تطيلة ١٢ ميلاً ...».(١١)

ان مقولة الرازي «الاندلس أندلسان» تبناه الأسباب فيما بعد، فأوضحوا هم أيضاً بانقسام اسبانيا الى إسبانيتين: أطلسية ومتوسطية، وهذه النظرية اوردها وتوسع بها الكاتب (رامون فرد بيدال) في مقدمة الجزء الأول من تاريخ إسبانيا.[١٢]

وحدد الرازي الأساس الذي بنى عليه فيما بعد مفهوم الجغرافية الطبيعية والجغرافية البشرية، وممن سار على هذا المفهوم قديماً أحمد بن عمر بن أنس العذري.

لم يغفل الرازي دور الانسان في التكييف مع الطبيعة، وهو أول من قرب بين الحتمية والامكانية، فيكون بذلك قد سبق علماء الجغرافية في العصر الحديث امثال«لابلاش»[١٣] الذين وقفوا ضد الحتمية الجغرافية، وامنوا بالامكانية للانسان، فيمكن القول أن الجغرافيين في القرنين الماضي والحالي اطلعوا على افكار الرازي وصقلوها باسلوب جديد.

فالموضوعات الجغرافية التي تناولها الرازي بينت شدة اهتمامه بالانسان، وإيجابية دوره الكبير على الأرض.

ولايضاح دور الرازي وايجابية دوره الكبير في تقسيم الجغرافية الى عدة فروع، فقد لوحظ أن كتاباته تناولت الجانب البشري والجانب الطبيعي، فيمكن القول أنه كتب في الجغرافية الطبيعية (في التضاريس والمياه والمناخ) وفي الجغرافية البشرية (ومنها الاقتصادية والزراعية وجغرافية المدن وجغرافية السكان وجغرافية النقل وجغرافية المواصلات وجغرافية المعادن والجغرافية السياسية والعسكرية.

وقد نهج منهج الرازي في التركيز على الجغرافية الاقليمية (كتب الرازي الكثير في الجغرافية الاقليمية عن الأندلس، فكتب عنها بصدق وامانة وحب لأنها مسقط رأسه وجنة احلامه) بعض الجغرافيون الأندلسيون مثل:[١٤]

١. ابن الخطيب، فرغم وجود اربعة قرون بين ابن الخطيب والرازي، فقد اتبع ابن الخطيب منهج الرازي في التقديم للتاريخ بالجغرافية. كما جاء في مقدمة كتاب ابن الخطيب (الاحاطة في أخبار غرناطة).

وتأثر ايضاً ابن الخطيب بالرازي في حبه لوطنه، فنجد ابن الخطيب في وصفه للأقاليم «مملكة غرناطة» سمّاها «الوطن الشريف»، وهذا يدل على اعتزازه بوطنه الاندلس. وهذا ما سلكه ايضاً في كتاباته كل من ابن سعيد والمقري.(١٥)

٢. عبدالله بن عبدالعزيز (المعروف بـ أبو عبيد البكري)، فمن آثاره كتاب معجم ما استعجم وكتاب الممالك والمسالك فقد تأثر البكري بالرازي، ويستدل على ذلك من كتاباته عن شبه جزيرة أبريا خاصة النصوص والأسماء، فقد ثبتها كما ثبتها الرازي.

٣. عبدالله بن ابراهيم الحجاري، فقد وصف الاندلس معتمداً في كتاباته على ما كتبه الرازي(١٦).

ويعد الرازي بحق واضع أساس الفكر الجغرافي، وترك لنا ثروة علمية جغرافية اغنى بها التراث الاسلامي العربي، والمكتبة العربية.

الهوامش

١. ابو بكر محمد بن الحسن الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين، ٣٧٠هـ، ص٣٢٧.
٢. أحمد بن يحيى الضبي، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، الطبعة الاوروبية، ١٩٨٤، ص١٤٠.
٣. سالم سعدون، «الفكر الجغرافي عند الرازي» المؤرخ العربي، عدد ٣٤، بغداد، ١٩٨٨، ص٢٥٠-٢٥٣.
٤. حسين مؤنس، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، منشورات معهد الدراسات الاسلامية، مدريد ١٩٦٧، ص٥٨-٥٩.
٥. محمد سيد غلاب وآخرون، الجغرافية في القرن العشرين، جـ٢، القاهرة، ١٩٧٥، ص٤٤١.
٦. سالم سعدون، مصدر سابق، ص٢٥٢.
٧. أغناطوس كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله للعربية صلاح الدين عثمان هاشم، ترجمه أيفور، بليانوف، جامعة الدول العربية، ١٩٥٧، ص١٦٩
٨. شكيب أرسلان، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الاندلسية، جـ١، ط١، دار الطبع والنشر بالمغرب، ١٩٣٦، ص١٨٧.
٩. سالم سعدون، مصدر سابق، ص٢٥٣.
١٠. شكيب ارسلان، ص١٦٢.
١١. سالم المبادر، ص٢٥٤.
١٢. المصدر نفسه، ص٢٥٤.
١٣. صلاح الدين الشامي، الفكر الجغرافي سيرة ومسيرة، الكتب الجغرافية، ٤٥، منشأة المعارفة بالاسكندرية، ١٩٨٠، ص٣٢٨.
١٤. سالم المبادر، ص٢٥٥-٢٥٦.
١٥. حسين مؤنس، مصدر سابق، ص٤٨١.
١٦. عبدالله يوسف الغنيم، مصادر البكري ومنهجه الجغرافي، ذات السلاسل، الكويت، ١٩٧٤.

الفصل الخامس

نخبة الدهر في عجائب البر والبحر - للدمشقي-

مقدمة:

في تاريخ المعرفة العلمية تبقى عدة أسماء هي الشخصيات التي بذلت الكثير وتوصلت إلى كشف الحقائق المهمة وأسهمت بتأكيد بعض القواعد. وفي تاريخ علوم البحار والمحيطات لنا المصادر المعنية بذلك عدة أسماء لعل من أشهرها «ماثيوفونتيني ماوري- Mathew Fantine Maury» (١٨٠٦- ١٨٧٣) الأمريكي، وكان ضابطاً في البحرية الامريكية وكتب كتاباً بعنوان «الجغرافية الطبيعية للبحر» وكتاباً آخر بعنوان «مرشدات ملاحية».

والسير «جون موري- Sir John Murray» (١٧٧٢- ١٨٧٥) الانجليزي وكان على رأس البعثة العلمية الانجليزية للكشف عن المحيطات.

ثم «لويجي فرناندو مرسيلي- Luigi Fernando Marisigli» (١٦٥٨-١٧٣٠) الايطالي الجنسية وقد وضع رسالة سماها «التاريخ الطبيعي للبحر».

وغير هؤلاء كثيرون ففي حقل بيولوجيا البحار والمحيطات يذكر عادة كلا من «أدوارد فوربس- E. Forbes» و(سارس- M. Sars) وهنري ادوارد- H. Edward.

والحقيقة أن واضع أول القواعد في الملاحة وأول الأسس لمعرفة البحار هو صاحب «ثلاث أزهار في معرفة البحار» إنه «ابن ماجد» الذي عاش في «ظفار» بجنوب الجزيرة في القرن الخامس عشر الميلادي.

أننا نرجع تأسيس هذه المعرفة العلمية إلى ابن ماجد، ذلك لأن التراث اليوناني لم يترك علماً بأسم علوم البحار. بل ترك معرفة عامة دون قواعد هي في الغالب ضمن صفحات كتب الجغرافية والتاريخ. وكتب علوم العرب في صدر الاسلام ذكرت البحار كجزء من وصف للأرض فهي لم تعرف علوم البحار أيضاً.

لقد ترك «ابن ماجد» عدداً من الكتب والاراجيز والرسائل وفيها لأول مرة يظهر اسم «علم البحر» ولعل كتابيه القيمين: «الفوائد في اصول علم البحر والقواعد» و«حاوية الاختصار في أصول علم البحار».

أهم ما تركه إلى جانب الأزهار الثلاث السابقة الذكر وهي عبارة عن ثلاثة أراجيز في وصف البحر ومعرفة خواصه.

لعل السبب في تأخير المعرفة في التراث العلمي العربي في هذا الحقل يعود إلى عدم الاستدلال على المؤلفات العربية المعنية به إلى عقد «العشرينات» من القرن العشرين حيث عثر على المرشدات الملاحية لابن ماجد وسليمان المهري.

إن ما تقدم لا يعني أن مصادر التراث العلمي العربي قد اهملت موضوع الهيدروغرافيا، كلا إنها على العكس تشير إلى اهتمام واسع، فقد ناقش العلماء العرب الغلاف المائي وامتداداته وقد توسعوا في جغرافية البحار وجغرافية الأنهار. أن هذا الاهتمام اتخذ نمطين هما:-

١- معالجة الظواهر الطبيعية للبحر وفن الملاحة وأدواتها ومسالكها ضمن مصادر الجغرافية وكتب «العجائب» وأدب الرحلات ومراجع التاريخ، وكان ذلك على مدى القرون الوسطى حتى القرن الخامس عشر «القرن التاسع الهجري».

٢- تحديد أسس علم البحار وقواعده وأصول الملاحة وفنونها من قبل «ابن ماجد» وسليمان المهري وجماعتهما، في مرشدات ملاحية "Sailing directions" تصف البحار وسواحلها وجزرها وتيارتها والمد والجزر وحركة الرياح. وذلك خلال العصور الوسطى المتأخرة في القرن التاسع الهجري.

وهكذا فابن ماجد هو المؤسس الأول لعلم البحار، رغم أن العرب قبله قد تعرفوا على البحر وادركوا ركوبه ومخاطره وعجائبه حيث امتدت دولتهم واتسعت أطرافها وتباعدت حدودها فهم قد وصلوا لمعظم جهات العالم المعروف حينذاك براً وبحراً.

أن الكتاب الذي نحن بصدده ومؤلفه من مصادر الجغرافية التي اهتمت اهتماماً واسعاً بحقل البحر وظواهره الطبيعية والبايلوجية.

الدمشقي:

هو شمس الدين ابي عبد الله محمد بني أبي طالب الانصاري الصوفي الدمشقي المعروف بشيخ الربوه، ولد عام (١٢٥٦) هـ في دمشق وامضى بها معظم حياته إماماً بمسجد الربوه ولقب الصوفي لميوله الصوفية. إن ميوله الصوفية كانت المسؤولة عن اعتزاله العالم أواخر حياته وإقامته بمدينة «صفد» في فلسطين حيث عاش بزهد إلى وفاته عام (١٣٢٧) م (٧٢٧)هـ .

أن العالم الدمشقي أحد عالمين تقدمت بهما الشام لتختم بجداره عصر الأدب الجغرافي العربي خلال القرن الرابع عشر. إنهما من أعلام الفكر الجغرافي وهما، الدمشقي وابو الفدا عماد الدين اسماعيل بن علي بن محمود، صاحب كتاب «تقويم البلدان» وقد عاش الاثنان متعاصرين في دمشق.

ألف الدمشقي كتب «نخبة الدهر في عجائب البر والبحر» وفيه كانت طريقة تصنيفه للمادة العلمية تكاد تنطبق على طريقة «القزويني» إلا أنه لا يكررها دون تدبر.(١)

والدمشقي على نقيض أبي الفدا يهمل الجغرافية الرياضي، ولكن كتابه الذي يعتبر في آن واحد مصنف في الجغرافية والكوزموغرافية بفضل كتاب أبي الفدا من حيث تبويب مادته ولو أنه أقل ملائمة لروح عصره. ونقول أقل ملائمة لروح عصره وذلك لأنه حذا حذو «الغرناطي والقزويني» بالإهتمام بغرائب الكون

وفي الميل إلى الخرافة[2]، والروحيات ولكن ليست من ذلك الطراز البدائي البسيط[3]. ومع ذلك فقد عالج مواضيع علمية بدقة كبيرة وذكر الكثير من المواضيع التي لم تذكرها المصادر قبله. والكثير من المعلومات في التاريخ الطبيعي عن النبات والحيوان وطبقات الأرض والمعادن.

والدمشقي نادراً ما يشير إلى مصادره وهي جميعها أسماء معروفة كابن حوقل والمسعودي والبكري والأدريسي وأحمد الطيني والأخير كان معاصراً له. وله مكانة بارزة بين جملة من اعتمد عليهم.

نخبة الدهر في عجائب البر والبحر

تذكر المصادر أن الدمشقي قد ألف كتابه هذا حوالي عام (١٣٢٥) م، وهو يعد من بين الكوزموغرافيات القيمة، ويتميز بأنه يشير إلى بعض المواضع الجغرافية التي لم تتناولها كتب من تعدموه. ينقسم الكتاب في (٩) أبواب لكل باب عدة فصول[4].

الباب الأول: في الكلام على كرة الأرض. وفيه يتناول شكل الأرض ووصف الأقاليم السبعة. الباب الثاني: في ذكر المعارف... والجواهر والأحجار وفيه يبحث المعادن والجواهر والأحجار الكريمة. الباب الثالث: في ذكر الأنهار الجرارة والعيون والآبار...، يصف الأنهار الجارية والعيون والآبار. الباب الرابع: في الكلام عن كثرة المياه... وفي إحاطة بالأرض، يصف البحار والمحيطات. الباب الخامس: في ذكر بحر الروم، يصف البحر المتوسط والبحار المتفرعة عنه. الباب السادس: في ذكر بحر الجنوب، يصف المحيط الهندي. الباب السابع: في ذكر الممالك الشرقية، يصف اليابس وما عليه من دول شرق العالم. الباب الثامن: في ذكر الممالك المغربية، يصف دول غرب العالم المعروف حينذاك. الباب التاسع: في وصف أنساب الأمم، دراسة جغرافية بشرية وانثروبولوجية.

أن معظم محققي ودارسي هذا الكتاب يعتبرونه مصدراً مهماً واساسياً في جغرافية وتاريخ الشام وفلسطين. أما وصفه إلى البلاد الواقعة إلى شرق الوطن

العربي فهو أقل قيمة خاصة مناطق المحيط الهندي وقد أكد ذلك «فيران- Ferrand».

أما ما يتعلق بالهند نفسها فقد أدان العلماء الدمشقي بأخطاء كثيرة، وعلى النقيض من هذا الموقف يراه البعض مصدراً مهماً قدم أكبر قائمة من أسماء الأماكن في مجال معرفة العرب بالهند الجنوبية على طول سواحل ملبار وكرومندل، هذا ما يراه «رينر- Rianinar»(٥).

والجدير بالذكر إلى أن ثمة إشارة في مقدمة بعض المخطوطات إلى خارطة بالكتاب. إلا أنه لم يمكن الكشف عنها حتى الآن في أية واحدة من المخطوطات المعروفة. بيد أنه إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن جميع كتب الكوزموغرافيا من هذا الطراز كمصنف القزويني والحراني وابن الوردي قد وجدت بها خارطة مستديرة للعالم فانم الاحتمال يغلب بوجودها عند الدمشقي ايضاً، وبعض مخطوطات الكتاب تحمل عدداً كبيراً من الرسومات التخطيطية ويقدم لنا (دكونراد ميلر) تحليلاً لثلاث منها فيبين احدها تقسيم الأرض إلى سبعة أقاليم ويوضح الآخر توزيع الشعوب على الأرض بينما يمثل الثالث رسماً للبحر المتوسط.

لقد عرفت كزموغرافيا الدمشقي منذ سنوات الستينات منذ القرن الماضي (١٨٦٦-١٩٢٣) في طبعة وترجمة فرنسية جيدة من عمل المستعرب الدنماركي (مرن-Mehren)، غير أن المحاولات الأولى لدراسة هذا الأثر قد ارتبطت إلى حد ما بنشاط الاستشراق الروسي.

بحر الروم:

يتناول الدمشقي دراسة البحر المتوسط ضمن الباب الخامس من كتابه وهذا الباب بعنوان «في ذكر بحر الروم المسمى باليونانية نيطس ومخرجه من خليج الاسكندر ووصف حدوده ونواحيه وجزائره وعجائبه وذكر نسبته إلى الاسكندر ويشمل على ست فصول».

الموقع والامتداد والمورفلوجيا:

لقد حدد الدمشقي الموقع الفلكي للبحر المتوسط بين خطي العرض (٣٠) شمالاً و(٤٣) شمالاً، وحسب طوله على (٥٨) خطاً طولياً، وقد ذكر طوله من الغرب إلى الشرق (٣٠٧٦) ميلاً وعرضه (٧١١) ميلاً بين الاسكندرية وما يقابلها من الساحل الأوروبي.

«.. إن بحر طنجة وسبتة والروم المسمى بحر مانيطس إذا خرج من الزقاق انفرش فيما بين جبلين واندفع إلى جهة المشرق في نحو طول ثمان وخمسين درجة وهي بالفراسخ ألف فرسخ وستة وعشرين فرسخاً، وهي بالأميال ثلاثة آلاف ميل وستة وسبعون ميلاً، وعرضه الأعرض وهو من عرض ثلاثين إلى ثلاث واربعين درجة، وهي بالفراسخ مائتا فرسخ وسبعة وثلاثون فرسخاً، وهي بالأميال سبع ماية ميل وأحد عشر ميلاً، وهو بين العلايا واسكندرية..»(٦).

إن الامكانات التقنية المتقدمة اليوم تحدد موقع وامتداد البحر المتوسط بين دائرتي العرض (٣٠-٤٦) شمالاً وبين خطي الطول (٧٥٠) غرباً و(٣٨) شرقاً، والبحر على هذا الأساس يمتد لحوالي (٢٥٠٠) ميلاً من الغرب إلى الشرق وبمتوسط (٥٠٠) ميلاً بين الشمال والجنوب.

أن تحديد دوائر العرض كما هو ملاحظ جاء متقارباً، أما الإختلاف فهو بالنسبة لخطوط الطول حوالي (١٣) خطاً طولياً. ولربما يعود ذلك إلى اعتباره البحر الأسود وبحر نيطس أوبحر الروسي أو بحر طرايزنده) جزء من جزء من البحر المتوسط حيث تنتهي السواحل الشرقية له عند خط الطول (٤٣) شرقاً، وبذلك يكون امتداد البحرين معاً على أكثر من (٥٠) خطاً طولياً، وأبعاده في المسافات وهي الأخرى كانت متقاربة تقدم صورة تقريبية لواقع البحر منذ ذلك التاريخ.

وبصدد مورفلوجية البحر وشكله فهو يصفه بدقة لدرجة كبيرة، يصفه كحوض شبه مغلق تحيط به السلاسل الجبلية على الساحلين الافريقي والأوروبي

«... إن بحر مانيطس إذا خرج من الزقاق إنفرش فيما بين جبلين واندفع إلى جهة المشرق» إنها سلاسل جبال الأطلس الساحلية في افريقيا وجبال سيرانيفادا في اسبانيا والبرانس الواقعة بين اسبانيا وفرنسا والجبال المتفرعة عن الألب الأوروبية نحو سواحل هذا البحر في ايطاليا ويوغسلافيا والبانيا واليونان وأخيراً جبال طوروس في تركيا. ويعود ليصف حوضه الغزلي حيث يتسع البحر يعد مضيق جبل طارق (... وأول انفراشه من الزقاق بأرض البربر على سفلى سبته وقصر الجواز... وإلى المزمّة...» ثم يصوره عند امتداد جزيرتي كورسيكا وساردينيا إلى وسط البحر مقابل الساحل التونسي حيث يضيق، على شكل الخرطوم المعقوف ويسميه هنا بحر (المزمّة)، ولعل هذا الوصف جاء بسبب انكسار الساحل الافريقي وتوغل البحر باتجاه القارة الافريقية حيث يتشكل ساحل تونس الشرقي. (... وإلى المزّمة وهناك ينفرش بحراً كصورة الخرطوم المعقوف يسمى بحر المزّمة وهذا صورة المزمّة).

يمثل الحوض الشرقي على شكل دائرتين متلاصقتين وفعلاً فإن انتشار جزر اليونان إلى وسط البحر وامتداد جزيرة كريت أمام ساحل سيرين في (ليبيا) والذي يمثل رأساً داخلاً من الأراضي الافريقية نحو البحر، يجعل هذه الصورة قريبة إلى الواقع.

(... ثم يمتد منفرشاً في أرض افريقيا إلى برقة إلى اسكندرية وهناك يكون عند انعطافه كصورة دائرتين متلاصقتين ثم ينعطف إلى شمال أرض التيه ثم يأخذ بحر الشام صدره ماراً بأرض فلسطين وسواحل الشام إلى أن يتصل بذيل لبنان الغربي فيمر بطرابلس الشام إلى اللاذقية وإلى انطاكية وذيل جبل الأقرع إلى السويدية وأذنه، ثم ينعطف في آخر بلاد سيس إلى جهة المغرب ويمر ببلاد الروم إلى العلايا وانطاكية وإلى الانشكري إلى بلاد الجلالقة إلى بلاد الخرباط إلى أرض المصطلي إلى الساعد المسمى خليج قسطنطينة، ثم يمر بها مغرباً إلى بلاد جنوه إلى بندقية إلى بيزان إلى بلاد سردانية إلى بلاد برسلونة إلى جزيرة بلنسيه إلى بلاد الأندلس فيمر بجبال ميرفة ثم بالجزيرة الخضراء إلى الزقاق الذي ابتدى انفراشه منه..)(٧).

وهكذا يحدد حوض البحر واليابس المحيط به ابتداء من بلاد المغرب وعلى طول الساحل الافريقي لينتقل بعد ذلك إلى الساحل الأسيوي ثم إلى الساحل الأوروبي فيذكر الأقطار الأوروبية تباعاً حتى الجزيرة الخضراء المشرفة على المضيق، وهكذا يبدو أن الدمشقي ومن سبقوه قد عرفوا هذا البحر عبارة عن حوض مغلق.

البحار المتصلة به:

ويتناول البحار المتصلة بالبحر المتوسط والخلجان والمضايق الموجودة فيه، فمن مضيق جبل طارق يذكر ما تتناقله الأخبار من أن الاسكندر هو الذي حفره ليفصل به بين الاندلس والبربر في شمال افريقيا، ويقدر عرض المضيق بحوالي (١٨) ميلاً والأدق أن أضيق جهاته (٨) أميال فقط. فلربما كان هذا بين جزيرة طريف- إلى قصر مصموده بالقرب من سبتة[٨]. ويذكر طبيعة هذا المضيق بأنه شديد التلاطم وتشير الدراسات الحديثة إلى وجود تيارات سطحية تدخل البحر المتوسط وهي قادمة من المحيط الأطلسي وتعتبر من مصادر تغذيته وهي محسوبة في كل ثانية. كما تخرج من البحر المتوسط تيارات تحتية نحو المحيط وهي من مصادر فقدانه للمياه وهي الأخرى محسوبة في الثانية الواحدة. وبسبب حركة هذه التيارات الخارجة والداخلة فقد اختلفت درجة حرارة المياه ونسبة ملوحتها هنا مما يعكس أثره في الخصائص الطبيعية المذكورة.

« ... وهذا الزقاق صعب شديد تلاطم الموج ويجد السالكون فيه مشقة من هوله وصعوبته لما ورثه من البحر المحيط...».

ويذكر أن هذا المضيق يمتد من درجة العرض (٣٦)°ش وهي فعلاً كذلك، وهو يقع ضمن الأقليم الرابع، وعند مراجعتنا للباب الأول من الكتاب اتضح لنا أن هذا الأقليم يمتد بين (٣٣)° و(٣٨)°ش وهو في معظمه يشمل حوض البحر المتوسط.

ويذكر مضيق البسفور، فهو يربط بين البحر المتوسط والبحر الأسود، ويطرح الرأيين القائلين بأنه يخرج من البحز المتوسط ليصب في البحر الأسود أو

بالعكس دون أن يفصل أحداهما على الآخر، (... اختلفوا في الساعد الخارج منه عند قسطنطينية فزعم قوم أنه داخل إليه من بحر تيطس الذي هو البحر الأسود يسمى بحر الروس، وأن بحر الروس متصل ببحر ورنك والصقالبة وزعم آخرون أن هذا البحر الرومي هو الذي يصب في الساعد في بحر الروس وأن بحر الروس غير متصل ببحر ورنك لاتصال الأرض الكبيرة من الأندلس إلى ما وراء النهر وإلى صحراء القبجق لا يقطع السير منها إلا نهر الحلوة فقط....).

وهنا يعني ببجر ورنك بحر البلطيق وهو فعلاً غير متصل بالبحر الأسود.

ويصف بحر الادرياتيك ويسميه خليج البنادقة (.... يخرج من بحر الروم خليجان احدهما يسمى خليج البنادقة متسع ليس له فوهة وإنما هو جوف له ركنان سعة ما بينهما سبعون ميلاً...) ويعتبر مخرج مضيق البسفور في البحر حيث سواحل تركيا واليونان وحتى جزيرة قبرص بحراً آخر ضمن البحر الرومي اطلق عليه خليج (اصطنبول). (.... وأما الخليج الثاني فساعد مسدود عند اصطنبول التي هي قسطنطينة، تسمى باليونانية مانيطس، وفوهته مقابل لجزيرة قبرص من الشمال...) وهو دون شك يعني بذلك ارخبيل اليونان.

ويتناول البحر الأسود فيصف طبيعته وجزره وأطواله والأقوام التي تعيش على سواحله والحيوانات التي تعيش فيه فيفرد له فصلاً مستقلاً هو الفصل الخامس، ويذكر اسماؤه التي عرف بها وهي بحر طرابزنده وبحر الروس وتيطس والأسود. (... بحر مظلم كثير الاضطراب كبير الموج تفريق المراكب فيه لشدة غليانه واضطرابه واختلاف الرياح العواصف فيه وهذا البحر ينفرش من مصب الساعد فيه ويمتد مشرقاً حتى يبلغ إلى طول سبعين درجة ونصف درجة من طول اربعين درجة وذلك ثلاثون درجة. وهي بالأميال ألف وسبع ماية واربعون ميلاً. وعرض هذا البحر على تفاوت من أربع واربعين درجة وإلى سبع واربعين درجة ونصف الدرجة وهي ثلاث درجات ونصف... وهي بالأميال نحو مائتي ميل. وبجزائره أمة تسمى الروسية... وقيل أنه بحر مستقل بنفسه يخرج منه خليج قسطنطينة ويصب في بحر الروم...).

ويعتبر بحر قزوين تابعاً هو الآخر للبحر المتوسط فيصفه بفصل مستقل هو الفصل السادس وفيه يقول (... بحر الخزر غير متصل بشيء من البحار وهو مستدير إلى طول وطوله من الجنوب إلى الشمال وعرضه من المشرق إلى الغرب، وإذا أراد مريد أن يطوف حوله على سواحله لم يجد ما يمنعه سوى الأنهار الداخلة إليه. وهو بحر واسع صعب المسالك كثير المهالك ولا له أمداد تحده غير الأنهار الحلوة الدافقة إليه ليلاً ونهاراً وعددها عشرين نهراً ...).

الخصائص الطبيعية والبيولوجية للبحر(٩):

«... وطبيعة هذا البحر حارة ورطبة بالنسبة إلى بحر الجنوب الحار اليابس وإلى بحر الشمال البارد الرطب ويبس بحر الجنوب لقلة ملحيته وحرارته...) يقارن خصائص هذا البحر بالمحيط الأطلسي المعروف ببحر الظلمات حينذاك وبالمحيط المتجمد الشمالي... فهو على الحالة هذه حار بالنسبة للآخير ورطب بالنسبة للأول، وبذلك يبدو أنه اعتقد بقلة الرطوبة في الجنوب نظراً لشدة الحرارة. ويذكر المد والجزر فيه فيقول (... ولهذا البحر الرومي مد وجزر مع امتلاء القمر بالنور ونقصانه منه وله مد وجزر في كل يوم وليلة...) وهكذا استطاع أن يربط هذه الظاهرة مع القمر. وعن الحيوانات التي تعيش فيه يصف الكثير من أنواع الأسماك والحيتان والبرمائيات (... أن في بحر الروم من الحيوان العجيب سمكة كصورة رجل أحمر اللون كبير الجثة رأسه مثل رأس القرعة ابيض كأنه رأس انسان مملوق، وجهه طويل وفمه مكون كتكوين فم القرد، وله رجلان وله يدان صغيرتان وبدنه من نصفه الأسفل بدن سمكة بذنب مفروش يظهر بوجه الماء نصفه الأعلى ويلتفت برأسه يميناً وشمالاً وعيناه كبيرتان كعيني البقر مستديرتان في وجهه ثم يغطس على رأسه في الماء).

(... وسمكة طاوجه آدمي بلحية بيضاء ولون جسده كلون الضفدع وهي في قدر العجل...) (... السمك الذي يسمونه شقنقورا وهو نوع من القرش...).

(.... وسمكة تسمى البغل وهي بحرية برية صوتها كشهيق البغال إذا فاقت...).

(... وسمكة تعرف بحوت موسى طولها أكثر من ذراع...) ويصنف الكثير من أنواع الأسماك البرية.

(... وبالبحر طائر أبيض لا يكاد يرى في البر ومن شأن هذا الطائر إنذار المراكب من العدو متى رأوه علموا أنهم ملاقوا عدواً...).

وينتقل بعد ذلك ليصنف الأسماك وعجائب الحيوان في البحر الأسود وبحر آزوف.

الجزائر في البحر المتوسط:

ويفرد لها فصلاً مستقلاً وهو الفصل الثالث بعنوان (في وصف جزائر البحر الرومي ومساحته وما فيها من العجائب).

إنه يتناول تسعة عشر جزيرة كبيرة لعل أهمها هي جزيرة صقلية حيث يذكرها (... ومن جزائر البحر الرومي جزيرة صقلية... وشكلها مثلث يحيط بها خمس ماية ميل كثيرة الجبال والأشجار والثمار والأنهار والمدن، ومن مدنها المشهورة بلرموه...)، (... وجزيرة رودس حيال بلاد افرنجة ويحيط بها ثلاثماية ميل...)، (... وجزيرة سردانيه طولها مايتا ميل وثمانون ميلاً وعرضها ماية وثمانون ميلاً وبها مدن وبها معدن فضة...)[١٠]، (... وجزيرة مالطة طولها سبعون ميلاً وعرضها ثلاثون ميلاً وبها مدينة مسماه بأسمها...)، (... وجزيرة قبرس وقبرس اسم النحاس لأن بها معدنه ويحيط بها الف وخمس ماية ميل...)، (... وجزيرة اقريطش وهي جبال برقة طولها ثلاثماية ميل وثلاثون ميلاً... وفيها معدن الذهب...)[١١] ويقصد بالجزيرة جزيرة كريت.

وهكذا ذكر الدمشقي طول البحار وعرضها بالأميال وموقعها من خطوط الطول والعرض وما يتضمنه كل بحر من الجزائر والخلجان والحيوانات وخصائصه الطبيعية وكان نصيب البحر المتوسط ليس بالقليل من هذا الإطار.

المصادر

١. كراتشكوفسكي، اغناطيوس يوليا نوتش (١٩٦١)، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، القسم الأول نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم، (الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية) ص ٣٨٦.

٢. خصباك، شاكر (١٩٧٥) في الجغرافية العربية، دراسة في التراث الجغرافي العربي ساعدت جامعة بغداد في نشره، ص ٣٩٢.

٣. كراتشكوفسكي، المصدر السابق، ص ٣٨٧.

٤. الدمشقي، شمس الدين أبي عبد الله محمد أبي طالب الانصاري الصوفي، شيخ الربوه، اعداد المستشرف «ميرن» (١٩٢٣)، لايبزغ.

٥- أحمد، نفيس ، جهود المسلمين في الجغرافية، ترجمة فتحي عثمان، دار العلم، الألف كتاب، (٢٧٢)، القاهرة ص ٩٥.

٦. الدمشقي، مصدر سابق-ص ١٣٨.

٧. المصدر نفسه، ص ١٣٩.

٨. مؤنس، حسين (١٩٦٧) تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، منشورات معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، ص ٤٨٥.

٩. الدمشقي، مصدر سابق، ص ١٣٩-١٤٥.

١٠. المصدر نفسه، ص ١٤١.

١١. المصدر نفسه، ص ١٤٢.

الفصل السادس

النساء الراشدات في الوطن العربي
مؤشرات ديموغرافية

١- الغرض من الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى تحديد بعض الخصائص الديمغرافية للإناث في الوطن العربي من اللائي تتوزع أعمارهن على فئات العمر من (١٥) عاماً فأكثر.

تناولت حجم النساء الراشدات ومكانتهن من أعداد النساء في العالم والعالم النامي. وتحديد وتائر تطور هذا الحجم على مدى الفترة الممتدة ما بين (١٩٦٣-١٩٩٥). وكشفت التوزيع النسبي لهن على خارطة الوطن العربي، وأخيراً حددت بعض خصائصهن الأساسية في التركيب والتكوين.

٢- الدراسات السابقة:

شهدت العقود الثلاثة الماضية اهتماماً واسعاً لدراسة سكان الوطن العربي نتج عنه تراكماً كبيراً في الأدب السكاني تضمن مناهج المعرفة العلمية التي تتناول حقل السكان وعلم اجتماع السكان وجغرافية السكان واقتصاديات السكان والديموغرافية، أن معظم هذه الدراسات تناولت المجتمع السكاني من مختلف الجوانب وركزت على المستوى القطري ما عدا تلك التي أعدتها الهيئات القومية التابعة إلى جامعة الدول العربية، فهي ذات اطار قومي. وظهرت دراسات ديموغرافية تناولت الإناث لوحدهن وما يتعلق بدورهن في الأنجاب، كما شهد

العقد الماضي الكثير من الدراسات التي تناولت دور المرأة وامكانية تنمية هذا الدور في النشاط الاقتصادي.

ولعل من بين الدراسات التي يمكن أن يشار اليها في هذا الصدد هي دراسة، R. Paul Shaw (1983), Mobilizing Human Resources in the Arab World (Arab, World Studies), Elia Zureik. فإلى جانب ما تناوله هذا الكتاب عن المرأة العربية وظروفها الاجتماعية الاقتصادية فقد خصص فيه (Shaw) فصلاً عن تطور استخدام المرأة (ص ١٣٠-١٥٥).

ونشير إلى دراسة (عاطف خليفة) وبعض الخصائص الديموغرافية للمرأة في مصر، المجلة الاجتماعية القومية،المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، القاهرة،(ص ٦٣-٧٦) (١٩٧٥).

ودراسة الجهاز المركزي للتعبئة العامة والأحصاء في القطر المصري (المرأة المصرية في عشرين عاماً).

إلى جانب الدراسات التي أعدت بأشراف من اتحاد النساء العربي والمنظمات النسوية القطرية، وهي في معظمها في حقل الاجتماع والسياسة.

إن ما يميز هذه الدراسة هي أنها تناولت النساء الراشدات في الوطن العربي باعتبارهن المخزون الديمغرافي لطاقة العمل البشرية التي يجب أن يحدد حجمها ويخطط لاستثمارها بشكل فعّال. وباعتبارهن عناصر الحركة النسوية العربية التي يستوجب نضالها من اجل تغير موقع المرأة الاجتماعي الاقتصادي بأن يأخذ موقفاً جاداً ونحن نعيش أواخر القرن العشرين وبدايات القرن الحادى والعشرين

٣- مصادر الدراسة وطريقة القياس:

اعتمدت هذه الدراسة على نتائج التعدادات السكانية التي نفذت فعلاً في الأقطار العربية خلال الفترة الزمنية التي أهتمت بها. والمعادلة التي حسبت بها

نسبة التغير السنوي للسكان هي المعادلة المئوية العالمية:

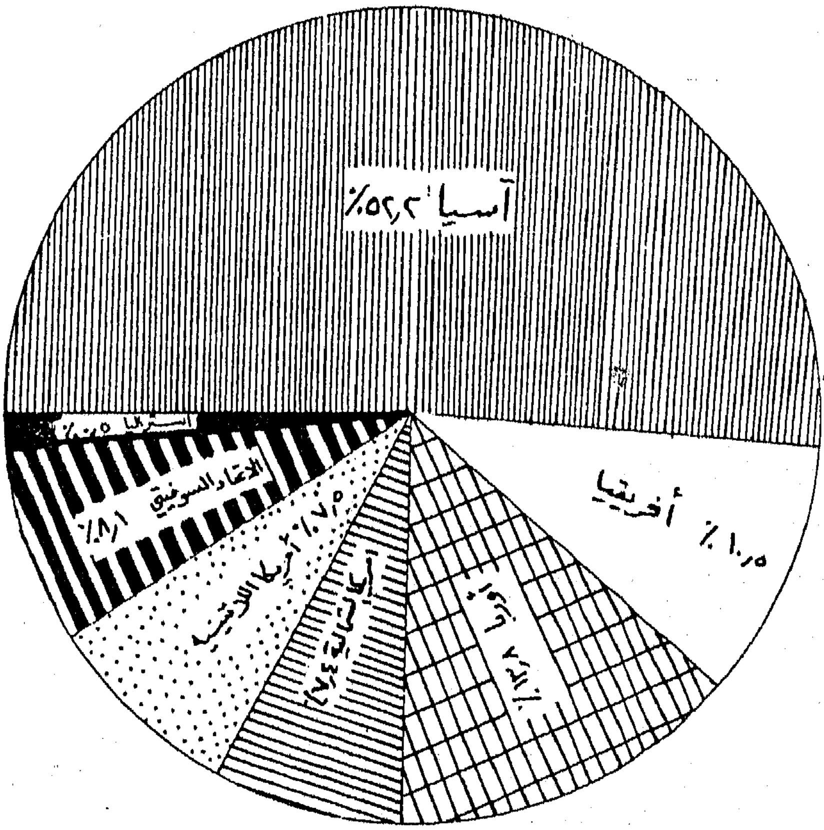
$$\sqrt[t]{\frac{P_1}{P_0}} - 1 \times 100$$

أما تحديد حجم النساء الراشدات فقد تم بالطريقة التالية :جمعنا نسبة كل من فئة الشباب (١٥– ٦٠) وكبار السن (٦٥) عاماً فأكثر لكل قطر عربي، بعد ذلك حسبت النسبة على صعيد الوطن العربي بالقياس لكل مليون امرأة. فكانت النسبة هي (٥٣,٤ ٪) من مجموع الاناث.

٤- نساء الوطن العربي في العالم:

بعد تعاملنا مع نتائج التعدادات السكانية واطلاعنا على الدراسات التي تناولت موضوع نمو السكان في الوطن العربي تولدت لدينا القناعة أن معدل هذا النمو هو (٣,٢٪). وعند اعتماده وصلنا إلى تقدير للسكان هو (٢٤٦٩١٤٠٠٠) نسمة حتى منتصف عام (١٩٩٥)وهذا العدد يشكل نسبة (٤٪) من حجم السكان في العالم لمنتصف ذلك العام. وعلى ضوء ما لاحظناه من نتائج التعدادات حول التركيب النوعي نميل إلى تحيد النسبة النوعي (Sex- Ratio) بـ (١٠٤)(١) وهي ضمن المدى العالمي المعروف الذي حددته الدراسات الديموغرافية ما بين (١٠٤ – ١٠٧)(٢). واعتماداً على هذا التحديد فأن عدد السكان يتوزع بين الذكور والاناث بالشكل التالي (١٢٢٤٨٩٠٠٠) هم من الذكور (١٢٢٤٢٥٠٠٠) هم من الاناث، وإذا ما حاولنا أن نحدد التوزيع النسبي لكل من الجنسين فالذكور يشكلون نسبة (٥٠,٢ ٪) والاناث يشكلن نسبة (٤٩,٨٪). أن هذا التوزيع لم يؤشر حالة اختلال كبيرة في التوازن، وربما كان لحركة الوافدين الى الأقطار النفطية من خارج حدود الوطن العربي دورها في الغاء أو التقليل من تأثير أسباب اختلال التوازن. شكل (١)،(٢)،(٣).

شكل (١)

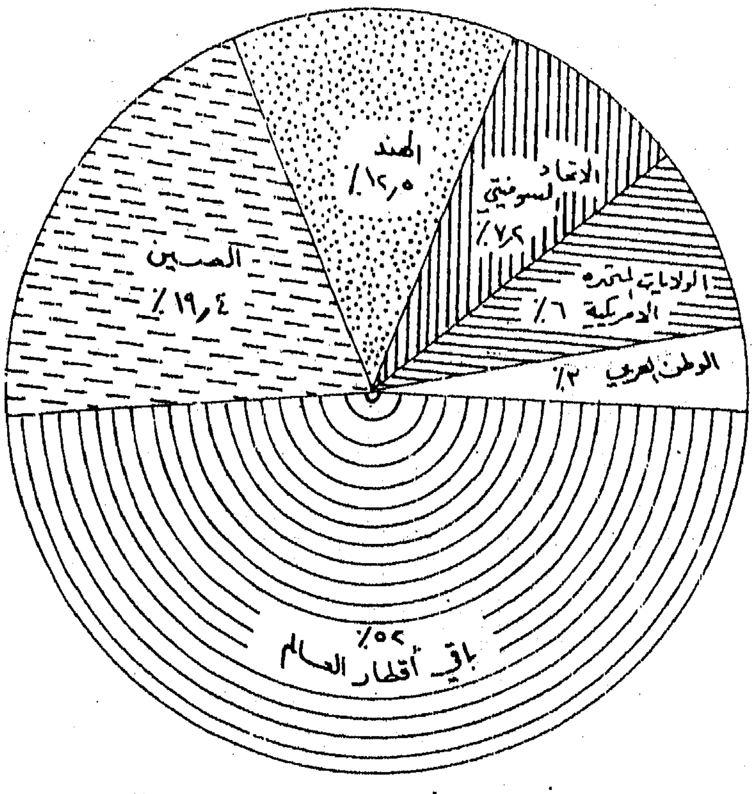


شكل -١-

التوزيع النسبي لنساء العالم أكثر من ١٥ عاماً من العمر

(١٩٨٥)

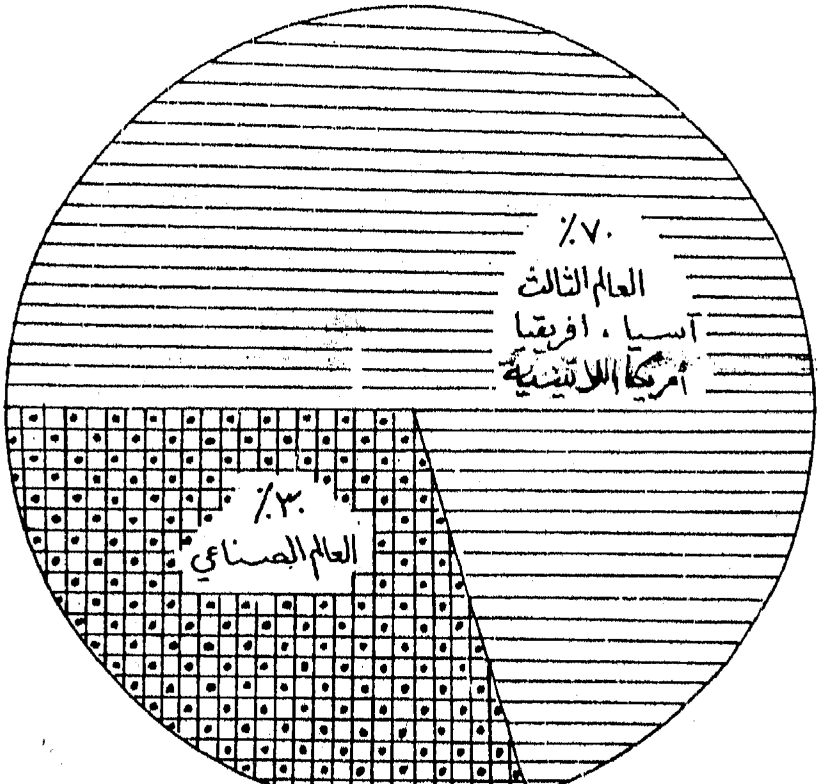
شكل (٣)



شكل -٢-

التوزيع النسبي لنساء العالم أكثر من (١٥) عاماً من العمر مع أشارة للدول الخمس الكبرى (١٩٨٥)

شكل (٣)



شكل - (٣)

التوزيع النسبي لنساء العالم أكثر من ١٥ عاما من العمر بين العالم الثالث و العالم الصناعي (١٩٨٥)

يتضح لنا من الجدول (١) أن عدد الأناث في وطننا العربي تشكل نسبة (٤,٣٪) من أعداد الأناث في العالم وهي نسبة قريبة من نسبة مجموع السكان فيه الى مجموع السكان في العالم والبالغة كما سبق وأن ذكرناها (٤٪) حيث يمثل الوطن العربي المرتبة الديموغرافية الرابعة بين أكبر الوحدات السياسية من حيث حجم السكان فيأتي بعد كل من الصين والهند والولايات المتحدة الأمريكية.

جدول (١)

التوزيع المكاني للأناث في العالم (منتصف ١٩٨٥ ومنتصف ١٩٩٥)

القارة/ المنطقة	عدد الاناث ١٩٨٥	النسبة المئوية	عدد الأناث ١٩٩٥	النسبة المئوية
آسيا	١٣٨٣٠٠٠ ٠٠٠	٥٧,٤	١٦٦١١٦١٠٠٠	٥٩,٤
افريقيا	٢٧٩٠٠٠ ٠٠٠	١١,٦	٣٧٧٠٣٣٠٠٠	١٣,٤
اوروبا	٢٥٢٠٠٠ ٠٠٠	١٠,٥	٣٦٧٧٦٤٠٠٠	١١,٢
امريكا اللاتينية	٢٠٣٠٠٠ ٠٠٠	٨,٤	٢٩٤٤٥٥٠٠٠	١٠,٤
امريكا الشمالية	١٣٥٠٠٠ ٠٠٠	٥,٦	١٤٦٦٧٩٠٠٠	٥,٢
استراليا	٩٥٠٠ ٠٠٠	٠,٤	١٠٦٨١٠٠٠	٠,٤
الاتحاد السوفيتي	١٤٧٠٠٠ ٠٠٠	٦,١	–	–
(الوطن العربي)*	٩٢٦٦٢٨٠	٣,٨	١٢٢٤٢٥	٤,٣
العالم	٢٤١٠ ٠٠٠ ٠٠٠	١٠٠	٢٨١٦٩٣٤٠٠٠	١٠٠

* نسبة سكان الوطن العربي جزء من نسب الأناث في اسيا وافريقيا.

- U. N. Demographic Year Book (1985).
- U. N. World Demographic Estimates and Projections, 1950- 2010.

أما النساء الراشدات فعلى الأساس الذي اعتمدناه فأن عددهن يقدر (٦٥٠٧٤٩٥٠) امرأة وبهذا العدد يشكلن نسبة (٣,٦٪) من نساء العالم الراشدات لعام (١٩٩٥). ولعل الجدول (٢) يقدم لنا صورة التوزيع على خارطة العالم ومكانة النساء العربيات النسبية.

جدول (٢)

تقديرات عدد النساء الراشدات في العالم (منتصف عام ١٩٨٥ ومنتصف ١٩٩٥)

القارة/ المنطقة	١٩٨٥ عدد النساء	١٩٨٥ ٪	النسبة المعتمدة لتقديرهن	١٩٩٥ العدد	١٩٩٥ ٪
آسيا	٧٣٢٩٩٠٠٠٠	٥٢,٢	٪٥٣	٨٨٠٤١٥٣٣٠	٥٤,٠
افريقيا	١٤٧٨٧٠٠٠٠	١٠,٥	٪٥٣	١٩٩٨٢٧٤٩٠	١٢,٠
اوروبا	١٩٤٠٤٠٠٠٠	١٣,٨	٪٧٧	٢٨٣١٧٨٢٨٠	١٨,٧
امريكا الشمالية	١٠٣٩٥٠٠٠٠	٧,٤	٪٧٧	١١٢٩٤٢٨٣٠	٦,٢
امريكا اللاتينية	١٠٥٥٩٠٠٠٠	٧,٥	٪٥٣	١٥٦٠٦١١٥٠	٨,٧
استراليا	٧٣٥١٠٠٠	٠,٥	٪٧٧	٨٢٢٤٣٧٠	٠,٤
الاتحاد السوفيتي	١١٣١٩٠٠٠٠	٨,١	٪٧٧	–	–
(الوطن العربي)	(٤٩٤٨١٨٧١)	(٣,٥)	٪٥٣,٤	(٦٥٠٧٤٩٥٠)	(٣,٦)
العالم	١٤٠٤٩٨١٠٠٠	١٠٠	–	١٨١٠٥٣٠٠٠٠	١٠٠

– حسبت النسب والتقديرات اعتماداً على معطيات الكتاب الديموغرافي العالمي.

نسبة النساء في الوطن العربي هي جزء من نسبة نساء آسيا وافريقيا.

- U. N. Deomographic Year Book (1985).
- U. N. World Demographic Estimetes and Projections, 1950- 2010.

من هذا الجدول نلاحظ أن أعداد النساء في العالم النامي قد بلغت (١٢٢٣٦٣٠٣٩٧٠) امرأة يشكلن نسبة (٧٠,٢٪) من نساء العالم. والنساء العربيات يشكلن من هذا الحجم نسبة (٥٪) لعام (١٩٩٥)، وهذه المعطيات تشير إلى أن أكثر من ثلثي نساء العالم تعيش في القارات آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية يتحملن مسؤوليات العمل مع شعوبهن والتنمية. ويواجهن مستلزمات التطور الاجتماعي من أجل تغيير المجتمع نحو الافضل.

وعلى صعيد تحديد الحركة النسوية العالمية نستخرج أعداد النساء في الدول الخمس الكبرى في العالم حيث تعيش هنا (٦٨٤٤٥٣٥٤٠) امرأة عام (١٩٨٥). ويضمنها نساء الاتحاد السوفيتي السابق. ويأتي تسلسل هذه الدول بعكس ترتيب حجم السكان فيما بينها كما يتضح ذلك من الجدول (٣).

أما في منتصف عام (١٩٩٥) فيلاحظ أن في الدول الأربعة الكبرى، (الصين والهند والولايات المتحدة والوطن العربي) يعيش (١١٤٤٦٦٤٠٠٠٠) امرأة، وقد بقي التسلسل العددي كما كان عليه للفترة السابقة.

جدول (٣)

اعداد النساء الراشدات في الدول الأربع الكبرى والوطن العربي (منتصف عام ١٩٨٤)

الدولة	أعداد النساء	النسبة المئوية من العالم	النسبة المعتمدة
الصين	٢٧٣١٨٣٨٦٢	١٩,٤	٥٣٪
الهند	١٧٦٠٠٨٩٤٢	١٢,٥	٥٣٪
الاتحاد السوفيتي سابقاً	١٠١٠٣٧٩٤٧	٨,٢	٧٧٪
الولايات المتحدة	٨٤٧٤٠٩٣٣	٦,٠	٧٧٪
الوطن العربي	٤٩٤٨١٨٧١	٣,٥	٥٣,٤

U. N. Demoraphic Year Book (1985)

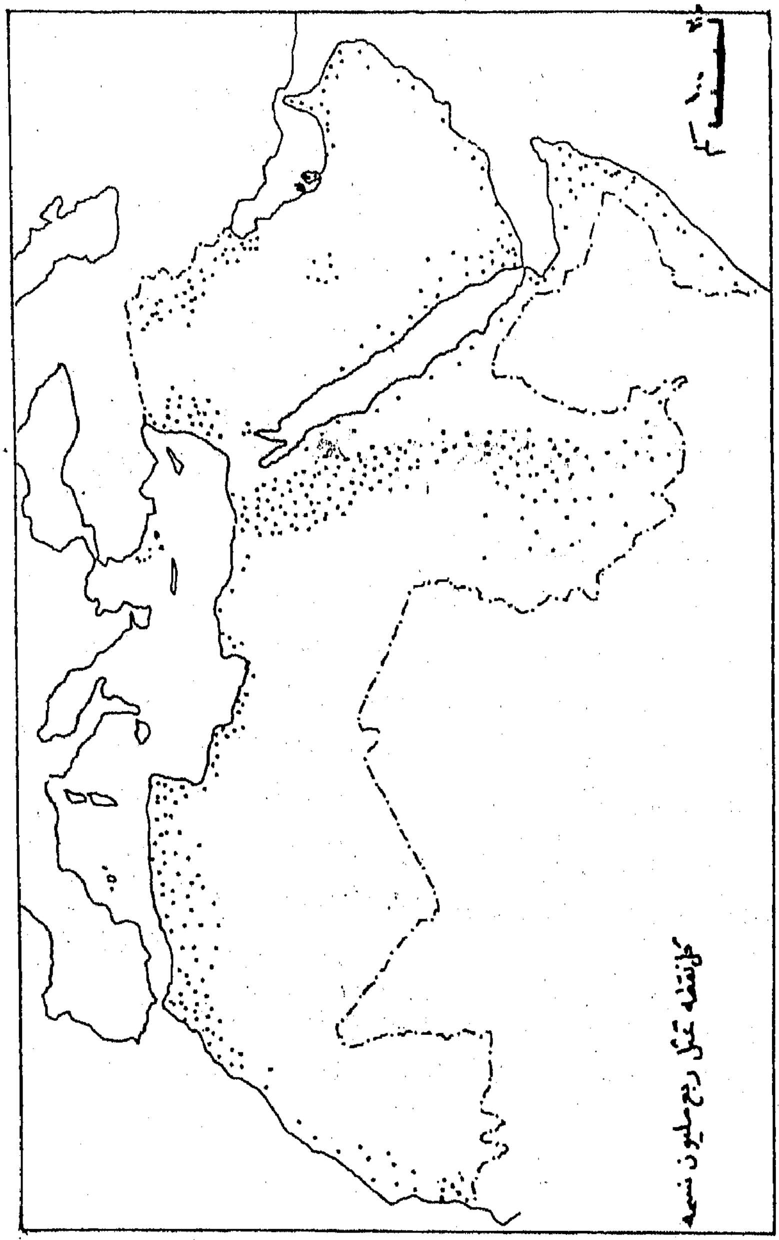
١:٥ التوزيع الجغرافي للنساء الراشدات في الوطن العربي:

بديهي أن الخصائص العامة للتوزيع الجغرافي لسكان الوطن العربي هي ذاتها التي تحدد صورة توزيع النساء الراشدات على خارطة الوطن العربي.

فالمعروف أن توزيع السكان بين جناحي الوطن العربي في آسيا وافريقيا يتفق مع توزيع المساحة بينها حيث يستأثر القسم الأفريقي بحوالي (٧٠٪) من مجموع السكان. ومن الخصائص العامة التي حددها الأدب الجغرافي بهذا الصدد هو أن وطننا العربي يتسم بالتخلخل السكاني وعدم الانتظام بالتوزيع، وبذلك يشار أنه يقع في اقليم من العالم يلتقي فيه محوران متقاطعان متناقضان، محور صحراوي يمتد من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، أي بين سواحل المحيط الأطلسي حتى القسم الشمالي من المحيط الهادي ليشمل الصحراء الكبرى وصحراء شبه الجزيرة العربية ثم صحراء وسط آسيا وهضابها حتى يتصل بصحراء سيبيريا الجليدية، وهو نطاق مقفر قليل السكان. ويتعامد على هذا المحور محور آخر على النقيض منه ليتضمن مركز العمران وتركز السكان في قارات العالم القديم ويمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، أي من أوروبا إلى جنوب شرق آسيا. وبذلك يقع الوطن العربي كحلقة اتصال بين النقيضين ويجمع بين صفات كل منهما فالعمران يتخلل الصحراء والصحراء تتخلل العمران.[٢]

و ترسم لنا الخارطة (١) صورة التوزيع الجغرافي للسكان في الوطن العربي، فيبدو عليها التواجد البشري على شكل شريط ضيق يشبه القوس يبدأ طرفه من سواحل موريتانيا على المحيط الأطلسي ينتهي عند طرفه الآخر على ساحل الخليج العربي. يضيق هذا الشريط عند طرفيه ويتسع مع امتداد ساحل البحر المتوسط وهنا يتباين اتساعه مرة أخرى حسب شدة تأثير العوامل المتحكمة برسم صورة هذا التوزيع، من عوامل طبيعية وأخرى حضارية. وينساب عن القوس محور يتعامد على الخارطة العربية من سواحل البحر المتوسط إلى أقصى حدود السودان الجنوبية، ويمثل هذا المحور مركز الثقل البشري عبر وادي النيل حيث يتركز فيه أكثر من ثلث سكان الوطن العربي. ويلاحظ من الخارطة امتداد

خارطة ١



خارطة رقم -١-
توزيع السكان في الوطن العربي

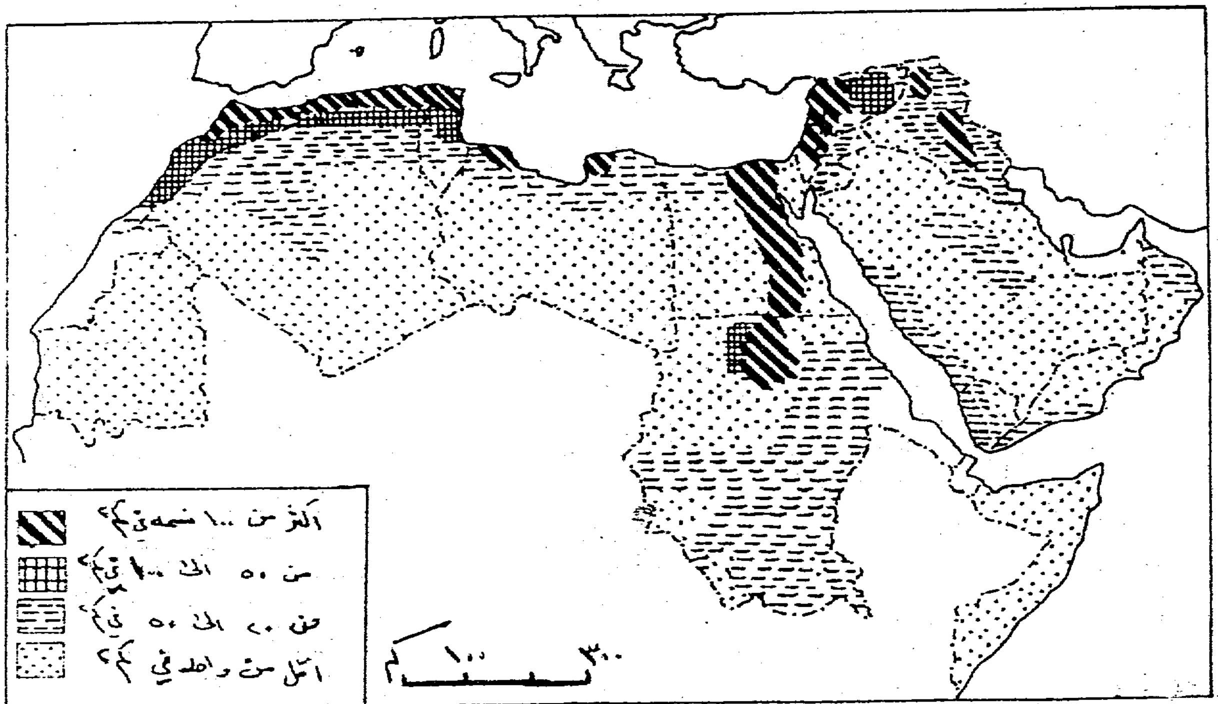
قوس آخر ضعيف جداً ومتقطع يمتد من سواحل الصومال لينقطع بواسطة خليج عمان ومن ثم يظهر ثانية مع امتداد سواحل شبه الجزيرة المطلة على البحر العربي من اليمن إلى عُمان، يضاف إلى ذلك بعض من مركز التجمعات البشرية المتناثرة على ارض الوطن العربي والتي تحددت مواضعها حيث تظهر فاعلية عوامل الجذب البشري.

ويشير الأدب الجغرافي أن الصورة العامةلتوزيع السكان في الوطن العربي السابقة الذكر تجزء إلى مكوناتها التالية وهي: (١) شمال افريقيا، (٢) حوض النيل والقرن الأفريقي، (٣) العراق وبلاد الشام، (٤)شبه الجزيرة العربية.

وبكل منها برزت عوامل الجذب التي شجعت التوجه نحوها على مدى تاريخ الاستطيان البشري فيها. وقد تباينت فيها الكثافة سواء ما يخص الكثافة العامة للسكان أم الكثافة العامة للنساء كما يتضح من الخارطة (٢) والتي توضح التوزيع النسبي للنساء الراشدات بين الأقطار العربية:

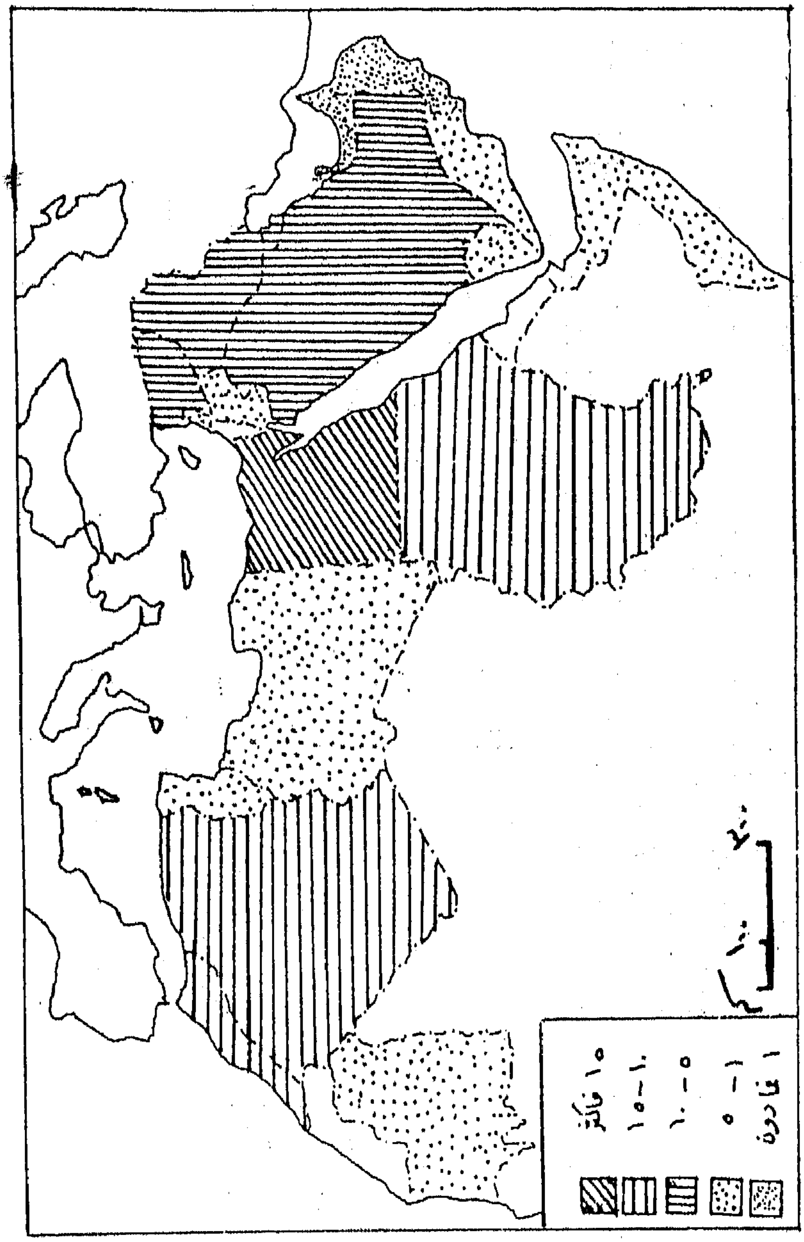
يلاحظ من معطيات الجدول (٤) إن مصر تضم أكثر من ربع النساء العربيات حيث بلغت النسب فيها (٢٦,٤٪) تأتي بعدها المغرب (١٢,٦٪). وتبدو كل من المغرب والجزائر والسودان في نسب متقاربة وهذا يؤكد تقارب حجوم السكان في كل منها وإلى تقارب التوزيع النوعي حسب آخر نتائج تعدادات السكان فيها. وفي الأقطار الثلاث يتركز أكثر من ثلث النساء العربيات وعند إضافة أعداد النساء المصريات فإن هذه النسبة ترتفع لتصل إلى حوالي ثلثي النساء في وطننا العربي، وهذ نتيجة تعكس الثقل الديموغرافي العربي في هذه الأقطار الأربعة. وتستمر هذه الحالة الديموغرافية حيث يؤشر الجدول (٥) ذات الترتيب السكاني لعام (١٩٩٥).

أما عن أقل نسب تواجد النساء فهي في منطقة الخليج العربي حيث تبدو أقل من (١٪)، ولعل قطر تمثل أقل نسبة على الإطلاق حيث تهبط فيها هذه النسبة إلى (٠,١٪) فقط.



خارطة رقم - ٢ -
توزيع كثافة النساء في الاقطار العربية

خارطة (٣)



خارطة رقم -٣-
التوزيع النسبي للنساء الراشدات في الوطن العربي (٪)
(١٩٨٥)

والخارطة (٣) تحدد الأقطار العربية في خمس مراتب رئيسة ينفرد بها القطر المصري في مرتبة متميزة وتبدو كل من الأقطار الثلاثة السابقة الذكر السودان والجزائر والمغرب في المرتبة الثانية، أما الجزيرة العربية وأطرافها الشمالية فتبدو هي الأخرى في مرتبة واحدة هي الثالثة، بينما تظهر الأقطار الباقية في المرتبتين الأخيرتين لا تشكل فيها أعداد النساء سوى أقل من (٥٪) تبدو بينها أقطار الخليج العربي الصغير في حجومها السكانية بنسبة دون (١٪).

جدول (٤)

توزيع الإناث والنساء الراشدات في الوطن العربي (١٩٨٥)

القطر	عدد الإناث	عدد النساء الراشدات
مصر	٢٤٤٩٧٥٠٠٠	١٣٠٨٣٦٧٥
ليبيا	١٨١٣٠٠٠	٩٧٨١٤٢
تونس	٣٥٥١٠٠٠	١٩٢٢٤٣٠
الجزائر	١٠٨٦٣٧٤٤	٥٨٧٤٧٨٤
المغرب	١١٦٨٩٠٠٠	٦٢٤٧٨٧٠
موريتانيا	٩٥٧٥٠٠	٥١١٣٠٥
السودان	١٠٧٤٠٥٠٠	٥٨٧٤٤٦٥
الصومال	٢١٢٢٥٠٠	١١٣٣٤١٥
سورية	٤٧٨٩٩٥٨	٢٦٧٨٦٧٧
لبنان	١٧٣٠٥٠٠	١٠٦٨٤٦٥
الأردن	١٧٤٩٧٥٠	١٠٦٨٣٦٧
العراق	٧٩١٧٠٠٠	٤٢٧٢٠١٠
الكويت	٧٦١٤٠٣	٤٢٧٥٤٣
البحرين	١٩٤٣٩٩	١٠٤١٣٠
قطر	١١١٩٥٦	٥٩٨٠٨
الامارات العربية	٧٥٠٠٠٠	٤٠٠٥٧٣
عُمان	٥٢٠٥٠٠	٢٧٨٢١٤
السعودية	٤٧٨٣٠٠٠	٢٦٧٤٩٩٠
اليمن الشمالي	٣٧٨١٠٠٠	٢١٣٦٩٣٠
اليمن الجنوبي	١٠٤٥٠٠٠	٥٥٨٠٣٠
الوطن العربي	٩٢٦٦٢٦٨٠	٤٩٤٨١٨٧١

جدول (٥)

توزيع الإناث والنساء الراشدات في الوطن العربي (١٩٩٥)

القطر	الإناث	الراشدات
مصر	٢٨٦٤٥٠٠٠	١٥٤٣٣٠٠٠
ليبيا	٢٤٧٢٠٠٠	١٧٣٥٠٠٠
تونس	٤٣١٦٠٠٠	٢٥٢٨٠٠٠
الجزائر	١٤٧٢٧٠٠٠	٨٠١٠٠٠٠
المغرب	١٣٥٦٨٠٠٠	٦٨٦٥٠٠٠
موريتانيا	١٢٩٧٠٠٠	٧٢٥٠٠٠
السودان	١٤٢٧٢٠٠٠	٧٦٨١٠٠٠
الصومال	٢٩٣٤٠٠٠	١٥٠٦٠٠٠
سورية	٧٤٨٠٠٠	٣٦٤١٠٠٠
لبنان	١٦٨٨٠٠٠	٩٨٥٠٠٠
الأردن	٢٥٧٤٠٠٠	١٥٠١٠٠٠
العراق	١٠٧٥٤٠٠٠	٥٩١٠٠٠٠
الكويت	١١٢٥٠٠٠	٧٨٥٠٠٠
البحرين	—	—
قطر	١٨٦٠٠٠	٩٨٠٠٠
الامارات العربية	٦٠٦٠٠٠	٣٩٥٠٠٠
عُمان	٨١٣٠٠٠	٥٠١٠٠٠
السعودية	٧٦٩٠٠٠٠	٣١٥٠٠٠٠
اليمن	٦٢٨٠٠٠٠	٣٢١٠٠٠٠
الوطن العربي	١٢٢٤٢٥٠٠٠	٦٤٥٨٧٠٠٠

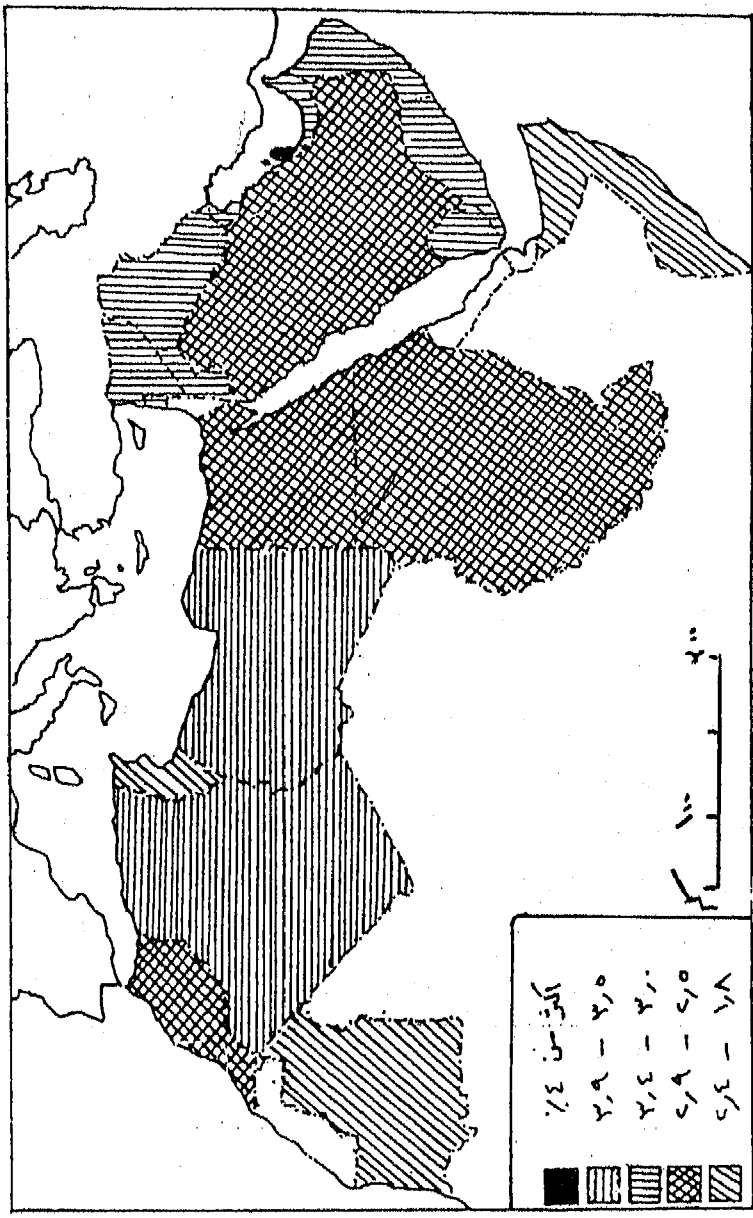
٦- تطور حجم النساء الراشدات:

١:٦ تطور حجم السكان:

تشير الدراسات الديموغرافية إلى تطور حجم السكان في وطننا العربي تطوراً سريعاً منذ ١٩٥٠ وحتى الوقت الحاضر (١٩٩٥)، ويبدو أن هذا واحدة من محصلات انتصار حركة التحرر الوطني وما تبعها من تنفيذ الخطط وبرامج التنمية الاقتصادية الاجتماعية وما نتج عنها من ارتفاع لمستوى معيشة المواطن العربي والذي لا بد من تأثيره بشكل واضح في هبوط معدلات وفيات الأطفال وصغار السن وإطالة متوسط العمر. فكان بديهياً أن يحصل عن سجل هذه التأثيرات ارتفاع بمعدل الولادات وهبوط بمعدل الوفيات مما نتج عنه ارتفاع معدل الزيادة الطبيعية. ولعله من الأنسب الإشارة إلى تأثير الهجرة الوافدة إلى الأقطار النفطية من خارج حدود الوطن العربي فكان لها دورها في ظهور نسب تغير سكانية مئوية مرتفعة لصالح نمو السكان في هذه الأقطار.

لقد تطور حجم السكان على مدى هذه الفترة الزمنية بمستوى ما حددته المالثوسيه من نمو مطرد حيث يكاد يصل ضعف ما كان عليه الحجم خلال (٢٣) سنة. فقد تضاعف العدد على وجه الدقة بحدود (١,٨) مرة. وكما يتضح من الجدول (٦) أن نسبة التغير السنوية كانت في المتوسط (٢,٧٪) تهبط إلى (١,٩٪) في تونس ولبنان حيث يتعرض المجتمع هنا إلى حركة نزوح إلى بعض الأقطار العربية أو إلى خارج حدود الوطن العربي كما يتعرض إلى ممارسة للحد من الإنجاب نسبياً كما تهبط هذه النسبة في السعودية إلى (١,٨٪) . ومن الخارطة (٤) التي جمعت الأقطار العربية في خمس مراتب لنسب التغير السكانية يبدو أن معظم الثقل الديموغرافي العربي يقع ضمن المرتبة الممتدة ما بين (٢,٥ ٪-٢,٩٪) حيث تضم كلاً من مصر والسودان والمغرب والسعودية.

خارطة (٤)



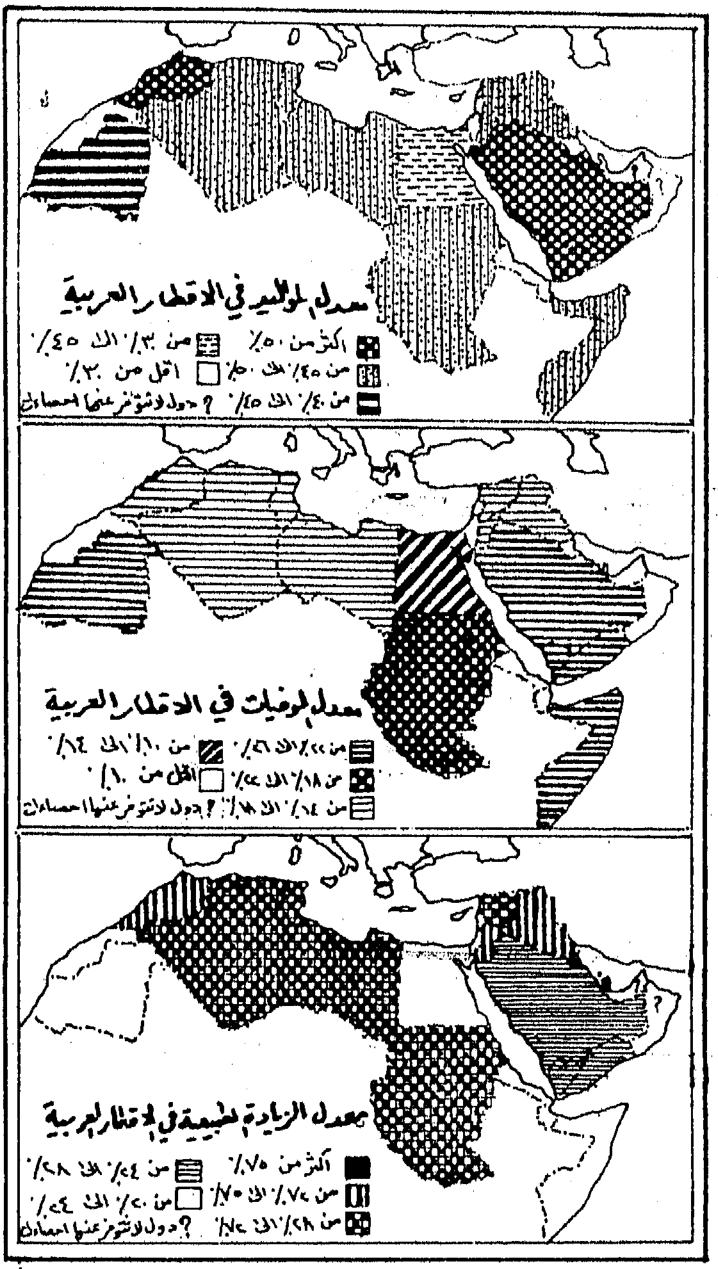
خارطة رقم ـ ٤ ـ
توزيع نسب التغير السكاني في الوطن العربي
(١٩٦٣ ـ ١٩٨٥)

٢:٦ تطور أعداد النساء الراشدات:

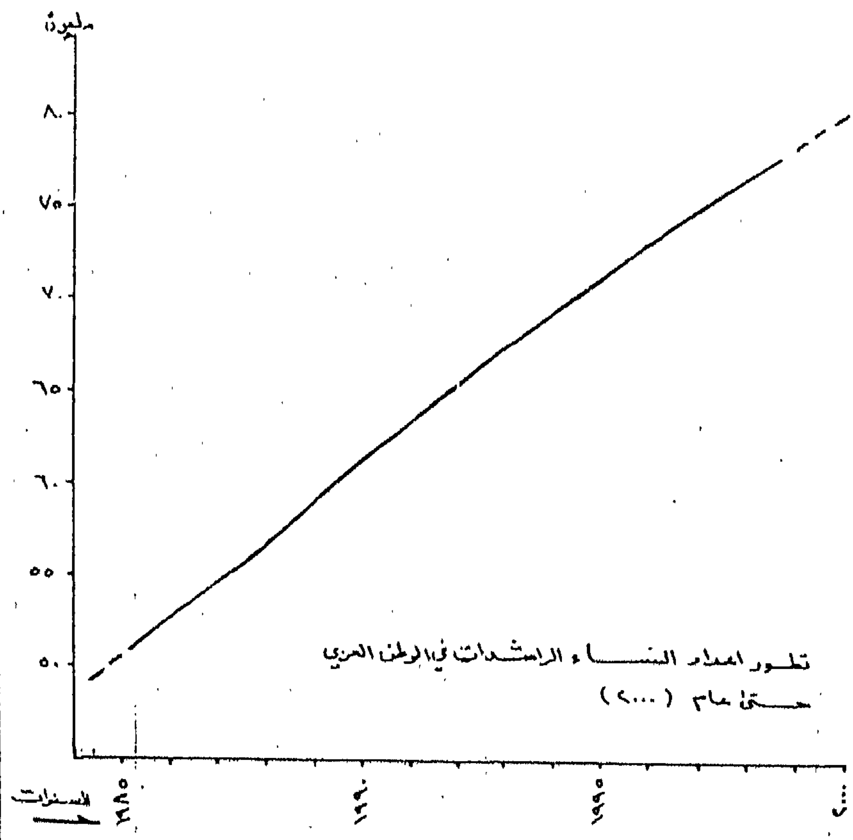
لقد عكست وتائر النمو السابقة الذكر والنسبة النوعية التي حددناها آثارها في تطور أعداد النساء الراشدات شكل (٤) فهي تكاد تتضاعف على مدى هذه الفترة وعلى وجه الدقة فقد تضاعفت بذات النسبة التي تضاعف بها حجم السكان في الوطن العربي وهي (١,٨) مرة. فقد بلغ عددهن (٤٩٤٨١٨٧١) امرأة بعد أن كان عددهن (٢٧٦٤٨٥١٠) امرأة عام (١٩٦٣)، وبصورة عامة رأينا معظم الأقطار العربية قد تضاعف فيها عدد النساء ما بين (١,٥) مرة (٢,١) مرة ما عدا الأقطار الخليجية حيث ترتفع إلى (٢٤) مرة كما هو الحال في الكويت، وذلك بسبب تعرضها الى الهجرة الوافدة:

أما عن تطور هذا الحجم حتى نهاية هذا القرن فلو اعتمدنا نسبة التغير السنوية (٧/ ٢٪) والتي نعتقد انها المتوسط القريب إلى الواقع في التغير الديموغرافي لهذه والفئات المدروسة والتي لا تتوقع أن تنخفض قبل نهاية هذا القرن، فإن هذا الحجم سيبلغ (٧٣٧٩٠٨٧٦). كما يتضح ذلك من الجدول (٦، ٧ و٨) وخارطة(٥).

خارطة (٥)


معدل المواليد في الاقطار العربية
أكثر من ٥٠٪
أقل من ٣٠٪
دول لا تتوفر عنها احصاءات
معدل الوفيات في الاقطار العربية
أقل من ١٠٪
دول لا تتوفر عنها احصاءات
معدل الزيادة الطبيعية في الاقطار العربية
دول لا تتوفر عنها احصاءات

شكل (٤)


مليون
٨٠
٧٥
٧٠
٦٥
٦٠
٥٥
٥٠
تطور اعداد النساء الراشدات في الوطن العربي
حتى عام (٢٠٠٠)
السنوات
١٩٨٥
١٩٩٠
١٩٩٥
٢٠٠٠
شكل - ٤ -

الجدول (٦)

نسبة التزايد السنوية للسكان في الوطن العربي

القطر	١٩٦٣	١٩٧٢	١٩٨٥	نسبة التزايد ١٩٨٥/١٩٦٣	١٩٩٥	نسبة التزايد ١٩٩٥/١٩٨٥
مصر	٢٧٩٤٧٠٠٠	٣٤٩٨٩٠٠٠	٤٨٩٩٥٠٠٠	٢,٦	٥٨١٧٨٠٠٠	
ليبيا	١٥٠٤٠٠٠	٢٠٨٤٠٠٠	٣٦٢٦٠٠٠	٤,١	٥١٦٨٠٠٠	٣,٥
تونس	٤٧٢٠٠٠٠	٥٣٣٧٠٠٠	٧١٠٢٠٠٠	١,٩	٨٦٨١٠٠٠	٢,٠
الجزائر	١١٢٠٥٠٠٠	١٥٢٧٠٠٠٠	٢١٧٢٧٤٨٨	٣,١	٢٩٥٤٤٠٠٠	٢,١
المغرب	١٢٦٦٥٠٠٠	١٥٨٢٥٠٠٠	٢٣٣٧٨٠٠٠	٢,٨	٢٧١٦٢٠٠٠	١,٤
موريتانيا	١٠٠٨٠٠٠	١٢٢٧٠٠٠	١٩١٥٠٠٠	٣,٠	٢٥٧١٠٠٠	١,٣
السودان	١٢٩٤٤٠٠٠	١٦٤٨٩٠٠٠	٢١٤٨١٠٠٠	٢,٣	٢٨٧٠٣٠٠٠	٢,٨
الصومال	٢٣٩٠٠٠٠	٢٩٤١٠٠٠	٤٢٤٥٠٠٠	٢,٦	٥٨٠١٠٠٠	٣,٠
سورية	٤٩٨٩٠٠٠	٦٦٧٨٠٠٠	٩٥٧٩٩١٦	٣,٠	١٥١١٤٠٠٠	٤,٤
لبنان	٢٢٧٨٠٠٠	٢٩٦٠٠٠	٣٤٦١٠٠٠	١,٩	٣٩٩١٠٠٠	١,٤
الأردن	١٨٢٣٠٠٠	٢٤٦٧٠٠٠	٣٤٩٩٥٠٠	٣,١	٥٢٦٩٠٠٠	٤,٠
العراق	٧٥٥٤٠٠٠	١٠٠٧٤٠٠٠	١٣٠٨٤٠٠٠	٣,٤	٢١٩٢٨٠٠٠	٥,٠
الكويت	٦٣٠٠٠	٩١٢٠٠٠	١٥٢٢٨٠٦	١٩,٨	٢٦٣٠٠٠٠	٥,٣
البحرين	١٦٦٠٠٠	٢٢٤٠٠٠	٣٨٨٧٩٨	٤,٩	—	—
قطر	٥٥٠٠٠	١٣٠٠٠٠	٢٢٣٩١٢	٦,٦	٤٩٤٠٠٠	٧,٥
الامارات العربية	١٥٥٠٠٠	٢٠٣٠٠٠	١٥٠٠٠٠٠٠	١٠,٩	١٧٦٩٠٠٠	١,٤
عُمان	٥٣٠٠٠٠	٦٩٩٠٠٠	١٤١٠٠٠٠	٤,٥	١٦٩٩٠٠٠	١,٦
السعودية	٦٤١٦٠٠٠	٨١٩٩٠٠٠	٩٥٦٦٠٠٠	١,٨	١٦٧٤٢٠٠٠	٤,٢
اليمن الشمالي*	٤٧٥٣٠٠٠	٥٥٦٧٠٠٠	٧٥٦٢٠٠٠	٢,١	١٢١٧٠٠٠	٤,١
اليمن الجنوبي	١١٦٤٠٠٠	١٥١٥٠٠٠	٢٠٩٠٠٠٠	٢,٧		
الوطن العربي	١٠٤٣٣٤٠٠٠	١٣٣٦٧٨٠٠٠	١٨٩١٠٧٥٢٠	٢,٧	—	—

— الأمم المتحدة– الاسكوا– جنوب غرب آسيا– كراسات سكانية.

* . اليمن جاء موحداً في بيانات (١٩٩٥).

— بيانات (١٩٩٥) عن

U. N. Demogaraphic Estimates and Projections 1950- 2010.

جدول رقم(٧)

تطور اعداد النساء الراشدات في الوطن العربي للفتره ١٩٦٢- ١٩٩٥

القطر	١٩٦٢	١٩٧٢	١٩٨٥	١٩٩٥
مصر	٧٤٠٥٩٥٥	٩٢٧٢٠٨٥	١٢٩٨٣٦٧٥	١٥٤٣٣٠٠٠
ليبيا	٣٩٨٥٦٠	٥٥٢٢٦٠	٩٦٠٨٦٠	١٧٣٥٠٠٠
تونس	١٢٥٠٨٠٠	١٤١٤٣٠٥	١٨٨٢٠٣٠	٢٥٢٨٠٠٠
الجزائر	٢٩٦٩٣٢٥	٤٠٤٦٥٥٠	٥٧٤٧٧٨٤	٨٠١٠٠٠٠
المغرب	٣٣٥٣٢٧٥	٤١٩٣٦٢٥	٦١٩٥١٧٠	٦٨٦٥٠٠٠
موريتانيا	٢٦٧١٢٠	٣٢٥١٥٥	٥٠٧٤٧٥	٧٢٥٠٠٠
السودان	٣٤٣٠١٦٠	٤٣٦٩٥٨٥	٥٦٩٢٤٦٥	٧٦٨١٠٠٠
الصومال	٦٣٣٣٥٠	٧٧٩٣٦٥	١١٢٤٩٢٥	١٥٠٦٠٠٠
سورية	١٤٥٦٩٧٠	١٧٦٩٦٧٠	٢٥٣٨٦٧٧	٣٦٤١٠٠٠
لبنان	٦٠٣٦٧٠	٧٨٥١٩٥	٩١٧١٦٥	٩٨٥٠٠٠
الأردن	٤٨٣٠٩٥	٦٥٣٧٥٥	٩٢٧٣٦٧	١٥٠١٠٠٠
العراق	٢٠٠١٨١٠	٢٦٦٩٦١٠	٤١٩٦٠١٠	٥٩١٠٠٠٠
الكويت	١٦٦٩٥	٢٤١٦٨٠	٤٠٣٥٤٣	٧٨٥٠٠٠
البحرين	٤٣٩٩٠	٥٦٣٦٠	١٠٣٠٣١	–
قطر	١٤٥٩٥	٣٤٤٥٠	٥٩٢٣٦	٩٨٠٠٠
الامارات العربية	٤١٠٧٥	٥٣٧٥٩	٣٩٧٥٠٠	٣٩٥٠٠٠
عُمان	١٤١٧٧٥	١٨٥٢٣٥	٢٧٥٨٦٥	٥٠١٠٠٠
السعودية	١٧٠٠٢٤٠	٢١٧٢٧٣٥	٢٥٣٤٩٩٠	٣١٥٠٠٠٠
اليمن الشمالي*	١٢٥٩٥٤٥	١٤٧٥٢٥٥	٢٠٠٣٩٢٠	٣٢١٠٠٠٠
اليمن الجنوبي	٢٠٨٤٦٠	٤٠١٤٧٥	٥٥٣٨٥٠	
الوطن العربي	٢٧٦٤٨٥١٠	٣٥٤٢٤٤٦٧	٤١٤٨١٨٧١	٦٤٥٨٧٠٠٠

الأمم المتحدة- الاسكوا- كراسات سكانية.

اليمن جاء موحداً في بيانات (١٩٩٥).

جدول (٨)

تطور اعداد النساء الراشدات حتى عام (٢٠٠٠)

السنة	عدد النساء
١٩٨٥	٤٩٤٨١٨٧١
١٩٨٦	٥٠٨١٧٨٨١
١٩٨٧	٥٢١٨٩٩٦٣
١٩٨٨	٥٣٥٩٩٠٩٢
١٩٨٩	٥٥٠٤٦٢٦٢
١٩٩٠	٥٦٥٣٢٥١١
١٩٩١	٥٨٠٥٨٨٨٨
١٩٩٢	٥٩٦٣٦٤٧٧
١٩٩٣	٦١٢٣٦٣٩١
١٩٩٤	٦٢٨٨٩٧٧٣
١٩٩٥	٦٤٥٨٧٧٩٦
١٩٩٦	٦٦٣٣١٦٦٦
١٩٩٧	٦٨١٢٢٦٢٠
١٩٩٨	٦٩٩٦١٩٣٠
١٩٩٩	٧١٨٥٠٩٠٢
٢٠٠٠	٧٣٧٩٠٨٧٦

٧- بعض خصائص التركيب والتكوين:

حسب تحديدات هذه الدراسة فإن خصائص التركيب لهذه الشريحة المدروسة هي النساء الراشدات اللائي بلغن من العمر (١٥) عاماً فأكثر. وقد اتضح أن عدهن (٩٢٦٦٢٦٧٩) امرأة يشكلن نسبة ٤ ،٥٣٪ من مجموع الإناث في الوطن العربي، على أن مجموع الإناث يشكل نسبة ٢، ٤٩ ٪ من مجموع السكان كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

إن أعداد النساء في الوطن العربي تشكل مخزون ديموغرافي يمكن أن يغذي طاقة العمل البشرية فيما لو خطط لذلك.

١:٧ النساء والحالة الزواجية:

لا تزال المعلومات الاحصائية التي تؤشر الحالة الزواجية ضعيفة وغير دقيقة وغير متوفرة عن بعض الأقطار. واعتماداً على بعض المسوح التي اجريناها على ما هو منشور عن مختلف الأقطار العربية، من معطيات احصائية ومن دراسات اجتماعية لا سيما ما تناول المجتمع العربي في كل من العراق ومصر وتونس والمغرب، نستطيع أن نحدد متوسط الزواج في الوطن العربي بما يتراوح (٨- ١٠) بالألف من مجموع السكان، ومتوسط الطلاق بحوالي ٥ ، ٢ بالألف. ومن هذه المعطيات والدراسات نلاحظ هبوط معدلات الطلاق، كما أن بعض الدراسات أشرت هبوط نسبة من يتزوجون بأكثر من زوجة[٤]. وعن توزيع النساء حسب الحالة الزواجية نستطيع أن نحدد الخصائص التالية:

١- في المتوسط حوالي (٧٥٪) من الإناث اللاتي يقل عمرهن عن (٢٠) عاماً لم يتزوجن. هذا المؤشر يدل بكل وضوح على توجه الإناث نحو التعليم ويدل على ارتفاع نسبة من يرغبن الوصول إلى التعليم الثانوي والتعليم الجامعي كما يدل من ناحية ثانية على التغير النسبي في موقف العائلة العربية من الرغبة المعروفة في تزويج البنات من وقت مبكر.

٢- في المتوسط حوالي (٨٠٪) من الإناث ممن تتراوح أعمارهن ما بين (٢٠-٢٩) عاماً متزوجات، وبسبب التوجه السابق الذكر نتوقع ثمة زيادة حصلت في هذه النسبة على حساب النسبة السابقة خلال العقود الأخيرة .

٣- ترتفع نسبة المتزوجات إلى (٨٨٪) لفئات العمر (٣٠-٣٩) عاماً وتهبط إلى حوالي (٨٠٪) لفئات العمر (٤٠- ٤٩) عاماً بسبب عدم حصول فرصة الزواج لبعض النساء.

٤- ما تبقى من النسب يتوزع ما بين غير المتزوجات والمطلقات والأرامل.

٢:٧ النساء والحالة التعليمية:

من بين ما تؤشره أدبيات التنمية العربية أن العشرين عاماً الماضية قد شهدت تطوراً ملموساً في توجه الإناث نحو التعليم ورغم ذلك فلا يزال تباين الإناث والذكور في معدلات الأمية وفي معدلات التوجه، حسب فئات العمر نحو مراحل التعليم كافة.

وقد واجهتنا صعوبات عدة لتحديد نسب الأمية في الأقطار العربية إذ قد لا تتوفر، وقد تحسب لمجموع السكان أو لمجموع السكان من (٥) سنوات، أو من عمر (١٠) سنوات فأكثر، فوحدة القياس تختلف من قطر إلى آخر. وبعد الإطلاع على الكثير من الدراسات والتقارير العربية توصلنا إلى تحديد هذه النسب كما هي مثبتة في الجدول رقم (٩).

وبصورة عامة وحسبما تؤشره المعطيات الإحصائية نستطيع أن نقدر نسبة الأمية بين الذكور في الوطن العربي بحوالي (٤٥ ٪) بينما تكاد تتضاعف هذه النسبة تقريباً لتصل إلى حوالي (٨٠٪) في السودان.

من هذا الجدول نلاحظ المؤشرات التالية:

١- إن سبعة أقطار عربية ترتفع فيها نسبة الأمية بين النساء الراشدات لأكثر من (٨٠٪) وهي تضم حوالي ثلث الثقل الديموغرافي في الوطن العربي من

بينها كل من المغرب والسودان وهما من الأقطار التي تتسم بحجوم سكانية كبيرة مقارنة بواقع الأقطار العربية الأخرى.

٢- يرتفع عدد الأقطار ليصبح عشرة أقطار تصل فيها نسبة الأمية بين النساء الراشدات ٧٥٪ فاكثر، وهنا يدخل كل من الجزائر والعراق.

٣- وإذا ما حسبت نسبة الأمية على أساس (٥٠٪) فاكثر فأن عدد الأقطار العربية يرتفع إلى (١٥) قطراً تضم أكثر (٩٩٪) من عدد النساء الراشدات في الوطن العربي.

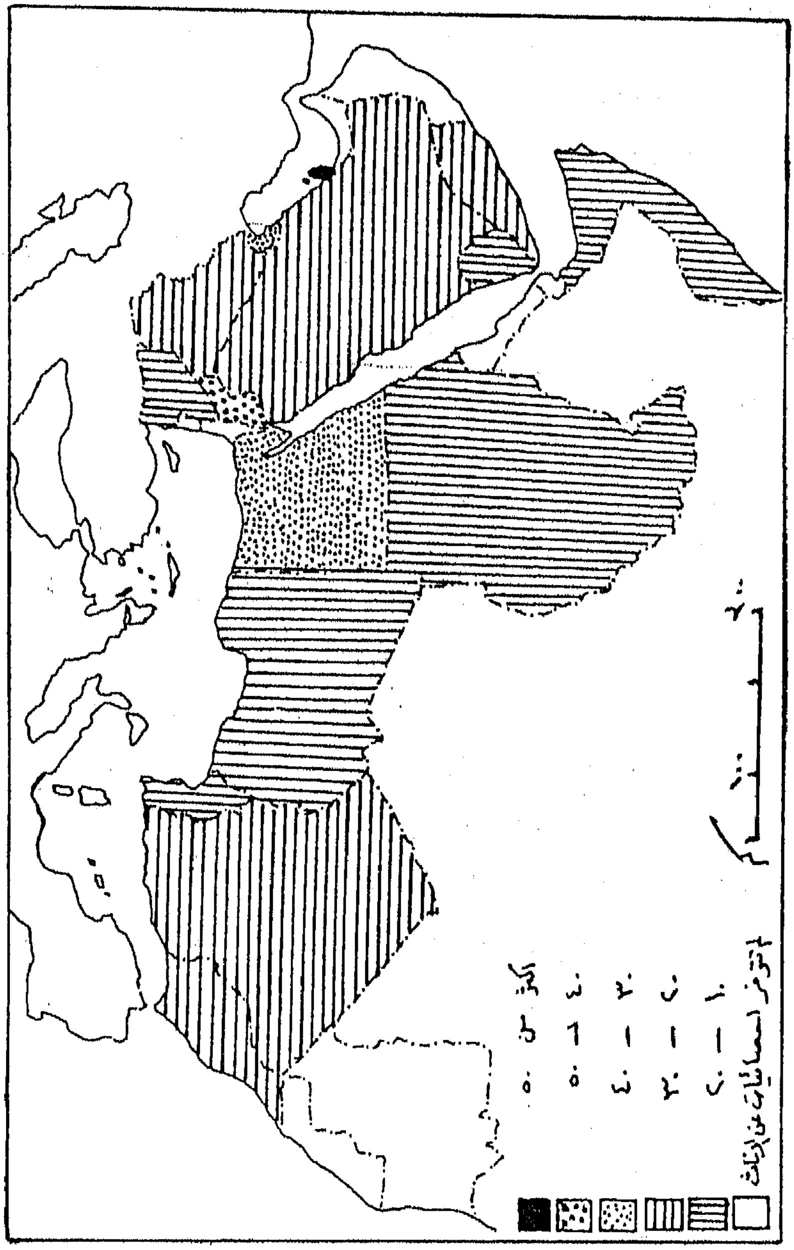
٤- تبدو كل من موريتانيا والصومال وقطر وفلسطين دون معلومات وثيقة أو معلومات يمكن أن يستفاد منها في معرفة نسبة الأميات حيث أن المعلومات تقديرية وعامة تشمل النوعين (الذكور والإناث معاً).

٥- تبدو كل من الكويت ولبنان بنسب من الاميات دون (٥٠٪). فتهبط نسبة الاميات إلى (٣٩٪) و (٩٪) في كل منهما على التوالي. ويلاحظ الفارق الكبير بينهما حيث تتضاعف النسبة في الكويت لاكثر من(٤) مرات مما هي عليه في لبنان.

ومن دون شك ان هذه النسب تهبط كثيراً لو حسبت من (٧) سنوات فاكثر وهو العمر المسموح به لدخول المدارس الابتدائية. فقد لاحظنا من التقارير والدراسات المتعلقة بالتربية والتعليم التوجه المتزايد للاناث في مراحل التعليم كافة فعلى سبيل المثال نذكر ان معدل تزايد الاناث في المرحلة الثانوية وفي التعليم الجامعي في السعودية هو ٥٣،٤٪ و ٣٩،٩٪ على التوالي.[٥]

انظر خارطة (٦) وجدول (١٠)

خارطة (٦)


خارطة رقم -٦-
توزيع نسبة الإناث من عدد طلبة التعليم العالي في الوطن العربي (٪)
(١٩٧٨ - ١٩٨٢)

جدول (٩)

نسبة الأمية في الاقطار العربية (١٥) عاماً فاكثر (٪) عام ١٩٨٠

القطر	الذكور	الاناث
مصر	٤٢	٧١
ليبيا	٥٦	٨٨
تونس	٤٣	٧٢
المغرب	٦٨	٨٩
الجزائر	٥٤	٧٩
موريتانيا	—	—
السودان	٨٦	٩١
الصومال	—	—
سورية	٢٨	٧١
لبنان	٤	٩
الاردن	٣٨	٦٩
فلسطين	—	—
العراق	٣٧	٧٥
الكويت	٢١	٣٩
البحرين	٤٢	٦٥
قطر	—	—
الامارات العربية	٥٥	٧٨
عمان	٦٥	٩٩
السعودية	٥٢	٩١
اليمن الشمالي	٧٥	٩٨
اليمن الجنوبي	٥١	٩١

عن/ اللجنة الاقتصادية لغربي اسيا (مكتب العمل الدولي) السكان والهجرة الدولية في الدول العربية/ المعطيات الاساسية (تاليف ج. س. بيركس ك. أ. سينكلير) ١٩٨٠.

– اللجنة الاقتصادية لجنوب غربي آسيا (الوضع السكاني) كراسات/ ١٩٨٠–١٩٨١ بيروت.

جدول (١٠)

توزيع نسبة الاناث من عدد طلبة التعليم العالي في الوطن العربي(٪) (١٩٧٨-١٩٨٢)

القطر	السنة	العدد (١٠٠٠)
مصر	١٩٧٥	٧٩٥
ليبيا	١٩٧٣	٢٩
تونس	١٩٧٥	٥٠٧
الجزائر	١٩٧٥	٥٠٧
المغرب	١٩٧٥	٦٩١
موريتانيا	١٩٧٥	١٧
السودان	١٩٧٦	٦٠٨
الصومال	١٩٧٥	٣٦٥
سورية	١٩٧٦	٣٨٧
لبنان	١٩٧٥	١٢٩
الاردن	١٩٧٥	٦٥
فلسطين	—	—
العراق	١٩٧٧	٥٤٤
الكويت	١٩٧٥	٣٥
البحرين	١٩٧١	٣
قطر	١٩٧٥	٢
الامارات	١٩٧٥	١٠
عمان	١٩٧٥	٢
السعودية	١٩٧٥	١١٤
اليمن الشمالي	١٩٧٥	٤٩
اليمن الجنوبي	١٩٧٦	٦٦

المصدر:

Shaw, R. Paul (1983). Mobilizing Human Resources in the Arab workd, Kegan Paul International,Londonn. p. 134.

٣:٧ النساء والنشاط الاقتصادي:

ان المراجعة لأدبيات خطط التنمية التي اعتمدتها الاقطار العربية في عقد السبعينات تؤشر اهتمام هذه الخطط في استفادة الاناث والذكور على حد سواء من نتائجها. وفي عام (١٩٨٠) عملت الاستثمارات الواسعة في الثروة الاجتماعية في الاقطار النفطية والمساعدات الممنوحة إلى الاقطار غير النفطية على تغيير واقع المرأة العربية واتساع فرص العمل.

والحقيقة أن مسألة تحرير المرأة وتطوير موقعها الاجتماعي الاقتصادي اخذت زخماً كبيراً في الوطن العربي في برامج التنمية وتحت تأثير الحركات النسائية واستجابة الحكومات في الاقطارالعربية كافة. ورغم ما حصل فعلا لصالح المرأة في الجانب التشريعي والتنفيذي لا يزال العمل النسوي في معظمه ينحصر في وزارات الحكومة وفي الجامعات والمجالات الخدمية الاخرى ولنخبة صغيرة نسبياً. وان الزيادات الهامشية في عدد النساء في القوى العاملة تنتظر الى حد بعيد التحسينات المطلوبة في تساوي الاجور والمشاركة في صنع القرار وغيرها.

النساء العاملات في الاقطار العربية

يوضح جدول (١١) مجموع القوى العاملة في الوطن العربي وعددها والعاملات لكل ١٠٠ عال في القوة العاملة الزراعية وغير الزراعية (١٩٨٠).

ومن الجدول نلاحظ الحقائق التالية:

١. تظهر تونس بصورة متقدمة على الاقطار العربية كافة حيث تتجاوز فيها النسبة ربع القوى العاملة فيها وهذه النسبةلم ترتفع بسبب النسبة المرتفعة للعاملات في الريف بل انها سجلت اعلى نسبة عربية للعاملات في النشاطات الاقتصادية غير الزراعة ايضاً.

جدول (١١)

عدد النساء العاملات لكل ١٠٠ عامل من القوة العامة الزراعية وغير الزراعية

القطر	مجموع القوى العاملة	القوة العاملة الزراعية	القوة العاملة غير الزراعية
مصر	٧,٢	٢,٣	١٢,٣
ليبيا	٤,٢	١٠,٣	٢,٨
تونس	٢٧,٢	٣٦,٣	٢١,٨
الجزائر	٤,٢	البيانات غير متوفرة	
المغرب	١٥,١	١٣,٠	١٦,٩
موريتانيا	٤,٣	البيانات غير متوفرة	
السودان	١٣,٥	٢١,٠	٥,٨
الصومال	٢٢,١	البيانات غير متوفرة	
سورية	٢١,١	٣٤,٢	٦,٤
لبنان	١٧,٢	١٠,٦	٢١,٠
الاردن	١٧,١	٣٢,٨	٩,٥
فلسطين	—	—	—
العراق	١١,٣	٣٧,٥	٩,٥
الكويت	١١,٤	٠,٠	١١,٦
البحرين	٣,٩	٠,١	٣,٨
قطر	٢,٧	٠,٠	٢,٨
الامارات	٣,٣	٠,٠	٣,٤
عمان	٢,٨	البيانات غير متوفرة	
السعودية	٦,٣	١٢,٨	٣,٢
اليمن الشمالي	٣,٤	٤,٤	١,٤
اليمن الجنوبي	١٨,٤	٣٠,٤	٧,٤

٢. يبلغ عدد الاقطار التي تصل فيها اعداد العاملات الى حوالي خمس القوى العاملة فيها الى ثلاثة اقطار فقط وهي كل من تونس والصومال، وسورية، وفي القطرين الاخيرين يبدو تسجيل النساء الريفيات كعاملات في حقل الزراعة كان من وراء ارتفاع هذه النسبة. ففي القطر الصومالي لم تتوفر البيانات عن توزيع العاملات حسب النشاطات الاقتصادية ولا شك ان هذه النسبة جاءت توشر ذكر النساء الريفيات كعاملات في الريف في معظمهن في المنشورات الاحصائية. وفي سورية تبدو نسبة العاملات في الزراعة مرتفعة تفوق نسبتهن في النشاطات غير الزراعية بحوالي (٥) مرات.

٣. يرتفع عدد الاقطار العربية التي تشكل فيها العاملات نسبة سدس القوة العاملة حيث يصل إلى (٧) اقطار في كل من تونس والمغرب والصومال وسورية ولبنان والاردن واليمن الجنوبي (عام ١٩٨٠ اي قبل الوحدة اليمنية) والاقطار الاخيرة ارتفعت فيها النسبة بسبب من ارتفاع نسبة العاملات في النشاط الزراعي فيما عدا لبنان حيث ان ارتفاعها كان بسبب ارتفاع نسبة العاملات في النشاطات غير الزراعية. فهو يؤشر حالة واضحة في تقدم المرأة اللبنانية في ميدان النشاط الاقتصادي.

٤. ترتفع عدد الاقطار العربية التي تشكل فيها نسبة العاملات (١٠٪) فاكثر من القوى العاملة فيها إلى (١٠) اقطار. وتبقى (٩) اقطار نسبة العاملات فيها دون (١٠٪) من بينها (٨) اقطار تهبط نسبة العاملات فيها إلى ما دون (٥٪) وهي اما اقطار غير زراعية كما هو حال اقطار الخليج العربي ام اقطار زراعية سجلت فيها معظم النساء الريفيات (ربة بيت) في تعدادات السكان واحصاءات العمل. انظر خارطة (٧).

أما عن توزيع النساء العاملات على النشاطات الاقتصادية فلا زالت النسبة الكبيرة منهن تتركز في قطاع الخدمات لا سيما القطاع الحكومي. ويمكن ان نلاحظ مثل هذه الظاهرة في كافة المعطيات الاحصائية المنشورة عن القوى العاملة على النشاطات الاقتصادية.

جدول (١٢)

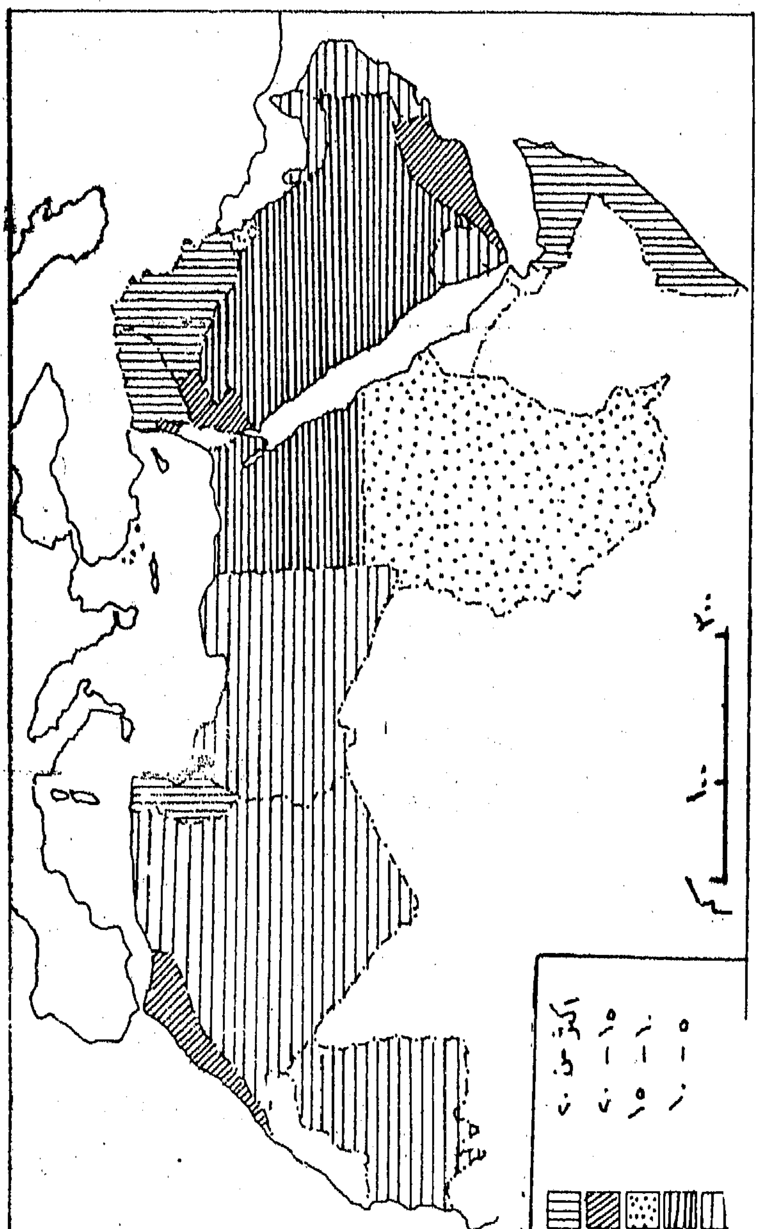
توزيع النساء العاملات على النشاطات الاقتصادية (١٩٨٠)

القطر	التاريخ	الزراعة	الصناعة والمعادن	الخدمات	غير مبين
مصر	١٩٧٥	١٦,١	١٠,٦	٥٤,٦	١٩,٧
ليبيا	١٩٧٣	٣٨,٥	٥,٥	٥٥,٢	٠,٨
تونس	١٩٧٥	٢٢,٩	٤١,٢	٢٠,٣	١٥,٦
الجزائر	١٩٦٦	٢١,٣	١٣,٦	٥٣,٩	١١,٢
المغرب	١٩٧١	لم يذكر التوزيع على الذكور والاناث			
موريتانيا		لم تتوفر احصاءات			
السودان	١٩٧١	٧٨,٢	٨,٧	٩,٤	٣,٧
الصومال	–				
سورية	١٩٧٦	٣٦,٧	٢٠,٤	٣٧,٧	٥,٢
لبنان	١٩٧٥	٢١,٩	٢٠,٩	٥٦,٢	٠,٤
الاردن	١٩٦١	٣٢,٣	٢٣,٦	٣٩,٦	٤,٥
فلسطين	–				
العراق	١٩٧٧	٦٤,٨	٩,٣	–	٤,١
الكويت	١٩٧٦	١,٦	١٠,٩	٨٧,٥	–
البحرين	١٩٧٦	لم توزع على الذكور والاناث			
قطر	١٩٧٥	لم توزع على الذكور والاناث			
الامارات		لم توزع على الذكر والاناث			
السعودية	١٩٧٥	٦٦,٤	١١,٥	–	–
اليمن الشمالي	١٩٧٥	٨٧,٣	١,٤	–	–
اليمن الجنوبي	١٩٧٦	٧٩,٦	٣,٢	٦,٣	٨,٩

مصدر الجدول: مجلس الوحدة الاقتصادية العربية/ الامانة العامة/ الكتاب الاحصائي السنوي للبلاد العربية (العدد الرابع) ١٩٨١–جدول (١٧)

خارطة (٧)

توزيع النساء العاملات من قوى العمل البشرية في الوطن العربي (١٩٧٠-١٩٨٠)



وهنا نحاول ان نستفيد ايضاً من الجدول (١٣) رغم كونه يؤشرحالة العقد الماضي التي نتوقع تغيرها لحد ما، في الفترة من (١٩٩٥-٢٠٠٠).

جدول (١٣)

توزيع نسب العاملات بين الصناعة والزراعة والخدمات (العاملات المسجلات رسمياً)

المنطقة	الصناعة والزراعة	الخدمات
الوطن العربي	٢٦,٣	٧٣,٧
الاقطار العربية/ شمال افريقيا	٣٠,٤	٦٩,٦
الاقطار العربية/ جنوب غرب آسيا	٢٣,٢	٧٦,٨

Shaw, R. Paul (1983). Mobilizing Human Resources in the Arab workd, Kegan Paul International,Londonn. p. 136.

وتبرز العلاقة المتداخلة بين التعليم والعمل فتبدو معدلات العمل بين النساء الحاصلات على الشهادة الجامعية تفوق من (٥-١٠) مرات ما هي عليه معدلات العمل للنساء الحاصلات على الشهاد الابتدائية فقط. والحيثيات النظرية التي يعرضها أدب التنمية في هذا المجال كثيرة لا يستوجب ان تتناولها مثل هذه الدراسة من ذلك فاننا سوف نستعيد هنا الحقائق التي اعتمدها السيد (Show)[٦]

فعلى سبيل المثال بلغت معدلات العمل بين العاملات في الكويت عام (١٩٧٥) كمايلي:

١. ٨٣٪ لمن يحملن المؤهلات الجامعية.

٢. ٤٨٪ لمن يحملن الشهادة الثانوية.

٣. ٥,٦٪ لمن يحملن الشهادة الابتدائية.

٤. ١,٠٪ فقط للنساء الاميات.

ولغرض التعريف باتساع فرص العمل للمتعلمات كانت هذه النسب عام (١٩٦٥) كمايلي وعلى التوالي:

١. ٥٠,٠٪

٢. ٣٠,٠

٣. ٢,٠٪

٤. ١,٠٪

وفي لبنان كانت نسبة العاملات المتزوجات من خريجات الجامعات هي (٣٨٪) مقابل (٤٪) فقط من العاملات المتزوجات اللائي يحملن الشهادة الابتدائية. اما بين غير المتزوجات فكانت النسب (٨٠٪) و (٤٠٪) على التوالي، وذلك اواخر عقد السبعينات.(٧)

لعل مثل هذه العلاقة تتضح في الاقطار العربية كافة، ولعل ظاهرةارتفاع معدلات العمل تقترن من جانب آخر بالتوزيع البيئي ما بين الريف والحضر. فالمعدلات المسجلة رسمياً في الحضر اعلى بكثير مما هي عليه في الريف العربي، ونحن نتحرج امام هذه المعطيات الاحصائية إذ ان اسهامات المرأة الريفية في العمل الزراعي واسعة وهي عند الاجابة على سؤال العمل او المهنة في استمارات التعدادات السكانية يذكر عنها (ربة بيت) او بدون عمل، وهذه ليست مشكلة الاقطار العربية فحسب بل تتعداها الى اقطار العالم النامي كافة. ولا تزال منظمة العمل الدولية تناقش باستمرار في ادبياتها تحديد العمل والعمل بدون اجور والعمل المنزلي للمرأة دون ان تتضح القيم الفعلية لمثل هذه المفاهيم. ومن ذلك نرى ضرورة ذكر (العمل المسجل رسمياً) عند عرضنا لهذا الموضوع.

على كل حال تشكل النساء الراشدات في الوطن العربي مخزوناً ديموغرافيا كبيرا يمكن ان يستثمروا وان يغطي الطلب المتزايد في سوق العمل فيما لو خطط لذلك. كما يشكلن نسبة كبيرة من التكوين الديموغرافي الاجتماعي الذي يعكس تطويره آثارا عميقة في تطوير المجتمع العربي.

الهوامش

١. المعادلة التي تحسب بها النسبة هي $\frac{\text{عدد الذكور}}{\text{عدد الاناث}}$ × ١٠٠.

٢. Feterson, William (1960), Population, 2nd Edition, The Kacmillsn Co., London, p. 64.

٣. حمدان، جمال (١٩٥٩) دراسة في العالم العربي، القاهرة، ص١١-١٤.

٤. مجلس الوحدة الاقتصادية/ الامانة العامة/ الكتاب الاحصائي السنوي/ العدد الرابع (١٩٨١) جداول (١٢، ١٣، ١٤).

- U.N. Demographic Year Book (1984), Table 4.

- U.N. Statistical Year Book (1981), Table 20.

٥. اللجنة الاقتصادية لجنوب غربي آسيا، الوضع السكاني في المملكة العربية السعودية، بيروت، ١٩٨١.

٦. Shaw, R. Paul (1983). Mobilizing Human Resources in the Arab workd, Kegan Paul International,Londonn. p. 134.

Shaw, op cit, pp. 141-142.